كتاب الإيمان

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿هُدى لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلوةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ...﴾ الآيات [البقرة: ٢، ٣].

وقال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣] ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

٢ ـ عن يحيى بن يعْمَر قال: كان أوَّلَ من تكلم في القدر ـ يعني بالبصرة ـ معبدٌ الجُهَنِي، فخرجت أنا وحُمَيْدُ بنُ عبدالرحمن نريد مكة، فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ، فسألناه عما يقول، فلَقينا عبدالله بن عمر، فاكتَنَفْتُه أنا وصاحبي، أحدُنا عن يمينه، والآخرُ عن شماله، فعلمت أنه سيكِل الكلامَ إليَّ، فقلت:

أبا عبدِ الرحمن! إنه قد ظهر قِبَلنا ناسٌ يتقَفَّرُون هذا العلمَ، ويطلبونه، يزعمون أنْ لا قَدَر، إنما الأمرُ أُنُفٌ؟! قال: فإذا لقيت أولئك، فأخبرهم أني منهم بريء، وأنهم مني بُرَآء، والذي نفسي بيده لو أن لأحدهم مِثْلَ أُحُدٍ ذهباً، فأنفقه في سبيل الله، ما قبل الله منه شيئاً حتى يؤمنَ بالقدر خيرِه وشَرِّه. ثم قال: حدثنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ أقبل رجل شديدُ بياض الثياب، شديدُ سواد الشَّعَر، ما يُرى عليه أثرُ السفر، ولا يعرِفه منا أحد، فأقبل حتى جلس بين يدي رسول الله ﷺ،

ورُكْبتُه تَمَسُّ ركبتَه قال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «تَشهدُ أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسولُ الله، وتُقيمُ الصلاةَ، وتُؤتي الزكاة، وتصومُ رمضان، وتحجُّ البيتَ إن استطعتَ إليه سبيلاً» فقال: صدقْتَ، فتعجَّبْنا من سؤالهِ وتَصديقه. ثم قال: فما الإيمانُ؟ قال: «أن تُؤمن باللهِ وحدَه وملائكتهِ وكُتبِه ورُسلِه وبالبَعثِ بعد الموتِ والجنةِ والنارِ، وبالقدَرِ خيرِه وشرِّه» فقال: صدقتَ. ثم قال: فما الإحسانُ؟ قال: «أن تعملَ لله كأنكَ تراه، فإنكَ إن لم تكن تراه، فإنه يراك» قال: صدقتَ.

قال: فأخبرني عن السَّاعةِ، فقال: «ما المسؤولُ عنها بأعلمَ بها من السائل» قال: صدقتَ. قال: فأخبرني عن أمارتِها، قال: «أن تَلِدَ الأمَةُ ربَّها، وأن تَرَى العُراةَ الحُفاةَ رِعاءَ الشاءِ يتطاولون في بنيان المَدَرِ» قال: صدقتَ. ثم انطلق فلما كان بعد ثالثة قالَ لي رسول الله ﷺ: «يا عمرُ هل تدري مَن الرَّجلُ؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «ذاك جبريلُ أتاكم يُعلِّمُكُم أمرَ دينكم، وما أتاني في صورة إلا عرَفتُه فيها، إلا في صورَتِه هذه».

أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٨).

قوله: «يتَقفَّرون العِلْمَ» أي: يتَّبعون أثره ويطلبونه، والتقفُّر: تَتَبُّعُ أثر الشيء.

وقوله: «إنما الأمرُ أُنُفٌ» يريدُ مستأنَفٌ لم يتقدم فيه قدرٌ، ولا مشيئة، يقال: روضةٌ أُنُفٌ: إذا لم تُرْعَ، وأنفُ الشيء: أوله.

وقوله: «فأخبرني عن أمارَتها» أي: علامتِها، يقال: أمارُ ما بيني وبينك كذا، وأمارة ما بيني وبينك، بالهاء وغير الهاء، وقيل: الأمار: جمع الأمارة.

قال الشيخ الإمام رحمة الله عليه: جعل النبي ﷺ في هذا الحديث الإسلام اسماً لما ظهر من الأعمال، وجعل الإيمان اسماً لما بطن من الاعتقاد، وليس ذلك لأن الأعمالَ ليست من الإيمان، أو التصديقَ بالقلب ليس من الإسلام، بل ذلك تفصيل لجملة هي كلها شيء واحد، وجِماعُها الدين، ولذلك قال: «ذاك جبريلُ أتاكم يعلِّمُكم أمر دينكم» والتصديق والعمل يتناولهما اسم الإيمان والإسلام جميعاً، يدل عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿إن الدِّينَ عند اللهِ الإسلامُ﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿ورضيتُ لكم الإسلامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣] ﴿ومَنْ يبتَغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فلن يُقبَلَ منه﴾ [آل عمران: ٨٥] فأخبر أن الدين الذي رَضِيَه، ويقبله من عبادِه، هو الإسلام، ولن يكون الدِّين في محل القبول والرضا إلا بانضمام التصديق إلى العمل.

قال أبو سليمان الخطابي: المسلم قد يكون مؤمناً في بعض الأحوال، وقد لا يكون مؤمناً في بعضها، والمؤمن مسلم في جميع الأحوال، لأن أصل الإسلام: الاستسلامُ والانقيادُ، وأصلُ الإيمان: التصديق، وقد يكون المرء مستسلماً في الظاهر غيرَ منقاد في الباطن، ولا يكون صادقَ الباطن، غيرَ منقاد في الظاهر، فإذاً كلُّ مؤمنٍ مسلمٌ، وليس كلُّ مسلم مؤمناً.

وقوله: «ما الإحسانُ» فإن معنى الإحسان هاهنا: الإخلاص، وهو شرطٌ في صحة الإيمان والإسلام معاً.

وقوله: «أن تَلِدَ الأَمَةُ ربَّها» معناه: أن يتسع الإسلام، ويكثر السَّبْيُ، ويتخذ الناسُ السراري، ويكثر منهن الأولاد، فيكون ابن الرجل من أَمَتِه في معنى السيد لأُمِّهِ، إذ كانت مملوكة لأبيه، وملك الأب راجع إلى الولد.

وقوله: «وأن ترى العُراةَ الحفاةَ رِعاءَ الشاء يتطاولون في البنيان» قال أبو سليمان الخطابي: يريد العرب الذين هم أرباب الإبل ورُعاتُها، أي: يتسع الإسلام، ويفتتح هؤلاء البلاد، ويسكنونها، ويتطاولون في البنيان بعد أن كانوا أهل النُّجَعِ لا تستقر بهم دار. والنُّجَعُ: طلبُ الكَلأ في موضعِهِ.

وهذا كما جاء في حديث آخر في أشراط الساعة «ويتكلم فيهم الرُّوَيبِضَةُ، وهو الرجل التافهُ ينطق في أُمور العامة» أخرجه أحمد (١٣٢٩٨) وابن ماجه (٤٠٣٦) بإسناد صحيح. وقيل: الرويبضة: تصغير الرابضة، وهو راعي الربيض، والربيض: الغنم، والهاء للمبالغة.

٣ ـ عن أنس بن مالكٍ قال: بينما نحنُ جلوسٌ مع النبي ﷺ في المسجدِ، دخل رجل على جملٍ، فأناخهُ في المسجد، ثم عَقَلَهُ، ثم قال لهم: أيُكم محمدٌ؟ والنبي ﷺ متَّكِىءٌ بينَ ظَهْرانَيْهم فقلنا: هذا الرجلُ الأبيضُ المُتَّكىءُ، فقال له الرَّجلُ: ابنَ عبدالمطلب! فقال له النبي ﷺ: «قد أجبْتُكَ». فقال الرجل: إني سائلُكَ فمُشَدِّدٌ عليك في المسألةِ، فلا تَجِدْ عليَّ في نفسِكَ، فقال: «سلْ عما بدا لك» فقال: أسألُكَ بربِّك وربِّ مَن قَبْلَكَ، آللهُ أرسلك إلى الناس كلِّهم؟ فقال: «اللهم نعمْ». قال: أنشدُكَ باللهِ، آللهُ أمرك أن تُصلِّيَ الصلواتِ الخمسَ في اليوم والليلةِ؟ قال: «اللهمَّ نعمْ»، قال: أنشدك بالله، آللهُ أمركَ أن تصومَ هذا الشهرَ من السنةِ؟ قال: «اللهم نعم»، قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تأخذَ هذه الصَّدقةَ منْ أغنِيائِنا فتَقْسِمَها على فقرائنا؟ قال النبي ﷺ: «اللهم نعم». فقال الرَّجلُ: آمنتُ بما جئتَ به، وأنا رسولُ مَن ورائي من قومي، وأنا ضِمامُ بنُ ثعلبةَ أخو بني سعدِ بن بكرٍ.

أخرجه البخاري (٦٣).

قوله: «ظَهرانَيْهِم» بفتح النون، أي: بينهم.

قوله: «أنشُدكَ بالله» أي: أسألك، يقال: نشَدْتكَ الله، أي: سألتك بالله برَفْع نشيدي، أي: صوتي، والنشيدُ: رفع الصوت، ومنه إنشادُ الشِّعرِ، وهو رفعُ الصوتِ به، والناشدُ: الطالبُ، سُمِّي به ناشدُ الضالةِ لرفعهِ صوتَه بالطلبِ. وقيل

في قوله سبحانه وتعالى: ﴿واتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَساءلونَ بهِ﴾ [النساء: ١] أي: تَطْلُبون به حقوقكم، كقولك: نشدتك بالله، أي: سألتُكَ به.

وفي هذا الحديث دليل على جواز القراءة والعَرْضِ على المحَدِّثِ، ثم الرواية عنه كما لوسمع منه، وهو قولُ جماعةٍ من أئمةِ الحديث وأهلِ العلم.

٤ ـ عن أنسٍ قال: كنا نُهينا أن نسأَلَ النبيَّ ﷺ عن شيءٍ، وكان يُعجِبُنا أن يَجيءَ الرَّجلُ من أهلِ البادِيةِ العاقلُ، فيَسألَ رسولَ الله ﷺ. فقال: فجاء رجلٌ، فقال: يا محمدُ أتانا رسولُكَ، فزعمَ لنا أنكَ تَزعمُ أنَّ اللهَ أرسلكَ! قال: «صدقَ» قال: فمنْ خلقَ السماءَ؟ قال: «اللهُ» قال: فمنْ خلقَ الأرضَ؟ قال: «اللهُ» قال: فمنْ نصبَ الجبالَ؟ قال: «اللهُ» قال: فبالَّذِي خلقَ السماءَ وخلقَ الأرضَ، ونصبَ الجبالَ: آللهُ أرسلكَ؟ قال: «نعم».

قال: وزعمَ رَسولُكَ أنَّ علينا خمسَ صلواتٍ في يومِنا ولَيلتِنا! قال: «صدقَ» قال: فبالَّذِي أرسلكَ، آللهُ أمَركَ بهذا؟ قال: «نعم».

قال: وزَعم رسولُكَ أنَّ علينا زكاةً في أموالِنا! قال: «صدقَ» قال: فبالَّذِي أرسلكَ، آللهُ أمَركَ بهذا؟ قال: «نعم». قال: وزَعمَ رسولُك أنَّ علينا صَومَ شهرِ رمضانَ في سنَتِنا! فبالَّذِي أرسلك، آللهُ أمَركَ بهذا؟ قال: «نعم».

قال: وَزعمَ رسولُكَ أنَّ علينا الحجَّ مَن استطاعَ إليهِ سَبيلاً! قال: «صَدَقَ» قال: فبالّذِي أَرْسَلَكَ، آللهُ أمَرَكَ بهذا؟ قال: «نَعَمْ» قال: ثُمَّ قال: والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ لا أزدادُ عليهن ولا أنْقُصُ منهُنَّ شيئاً، قال رسولُ الله ﷺ: «لئن صدقَ ليَدخُلَنَّ الجنَّة».

أخرجه مسلم (١٠) (١٢)، والترمذي (٦١٩).

الزعمُ هنا: القَوْلُ المحقَّقُ، وقد شَحَن سيبويه كتابه بهذا اللفظ وهو يحكي كلامَ أستاذه الخليل بن أحمد في مقام الاحتجاجِ.

باب

بيان أعمال الإسلام وثواب إقامتها

قال الله سبحانه وتعالى: إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً [الكهف: ١٠٧].

وقال: ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحاتِ طُوبىٰ لَهُمْ وحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد: ٢٩].

٥ ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «بُنِيَ الإسلامُ على خَمسٍ: شهادةِ أَنْ لا إِلهَ إلا اللهُ، وأَنَّ مُحمداً رَسُولُ اللهِ، وإِقامِ ٱلصَّلاةِ، وإِيتَاءِ الزَّكاةِ، والحجِّ، وصَومِ رَمضانَ».

أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

قال الحافظ ٱبن رجب في «جامع العلوم والحكم» ١ ـ ١٤٥: والمقصودُ تمثيلُ الإسلامِ ببُنْيان، ودعائم البنيان هذه الخَمْسُ، فلا يثبت البُنْيانُ بدونها، وبقيَّةُ خِصالِ الإسلامِ كَتَتِمَّةِ البنيانِ، فإذا فُقِد منها شيءٌ، نَقَص البنيانُ وهو قائمٌ لا ينتقضُ بنَقْصِ ذلك، بخلاف نَقْضِ هذه الدعائم الخمسِ، فإنَّ الإسلامَ يزول بفَقْدِها جميعاً بغير إشكالٍ. وكذلك يزولُ بفَقْدِ الشهادتين.

٦ ـ عن طلحة بن عبيد الله، رضي الله عنه، قال: جاء رَجُلٌ إلى رسولِ الله ﷺ من أَهل نَجْدٍ ثَائِرُ الرأسِ نَسْمَعُ دَوِيَّ صَوتِه، ولا نَفْقَهُ ما يَقولُ حتى دَنَا، فإذا هو يسألُ عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «خَمْسُ صلواتٍ في ٱلْيوم واللَّيلَةِ» فقال: هَلْ عَليَّ غَيرُهُنَّ؟ فقال:

«لا، إلا أَنْ تَطَّوَّعَ» قال رسول الله ﷺ : «وصيامُ شَهْرِ رَمضانَ» فقال: هَلْ عليَّ غَيرُهُ؟ قال: «لا، إلا أنْ تَطَّوَّع» قالَ : وذكرَ لهُ رسول الله ﷺ الزَّكاةَ، فقال: هَلْ عَليَّ غَيرُها؟ فقال: «لا، إلا أَنْ تَطَّوَّع».

قال: فأَدبَرَ الرجلُ وهو يقول: واللهِ لا أزيدُ على هذا ولا أنقُصُ منهُ، فقال رسول الله ﷺ: «أَفْلَحَ الرَّجلُ إنْ صَدَقَ».

أخرجه البخاري (٤٦)، ومسلم (١١).

قال ٱبنُ عبدِ البَرِّ في «التمهيد» ١٦ ـ ١٦٢: في هذا الحديثِ من الفِقْهِ: أَنَّه لا فَرْضَ من الصلاةِ إلا الخَمْسُ صلوات في اليوم والليلةِ، وأنَّه لا فرض من الصيام إلاّ صومُ شهرِ رمضان، وفيه : أَنَّ الزكاةَ فريضةٌ على حَسْب سُنِنِها المعلومة... وأما قوله: «أفلح إنْ صَدَقَ» ففيه دليلٌ ـ والله أعلمُ ـ على أَنَّ مَنْ أَدَّى فرائضَ الله وجبت له الجنة إذا اجتنبَ محارِمَه، لأنَّ الفلاحَ معناه البقاء في نعيمِ الجنة التي أُكُلُهَا دائمٌ وظِلُّها وفاكهتُها لا مقطوعةٌ ولا ممنوعةٌ، وعلى أداءِ فرائض الله واجتنابِ محارمه وعد الله المؤمنين الجنَّةَ والله لا يخلف الميعاد.

قوله: «دَوي صوتِه» دَويّ الشيء: حَفيفهُ، وقوله: «أفلح» أي: فازَ، ويقال لكلِّ مَنْ أصابَ خيراً: مُفْلِحٌ، والفلاحُ: البقاءُ: وقيل: معنى قول المؤذن: حَيّ على الفلاح، أي: هلموا إلى سببِ البقَاءِ في الجنةِ.

٧ ـ عن أبي أيوب الأنصاري: أنّ أعرابياً عَرضَ لرسول الله ﷺ في مَسيرٍ له، فقال: أخبرني ما يُقَرِّبُني من الجَنَّةِ، ويُباعدني من ٱلنار؟ قال عليهِ ٱلصلاةُ وٱلسَّلامُ: «تَعبُدُ اللهَ لا تُشرِكُ بهِ شيئاً، وتُقيمُ ٱلصلاةَ وتُؤتي الزكاةَ، وتَصِلُ الرَّحِمَ».

أخرجه مسلم (١٣).

٨ ـ عن المغيرة بن عبد الله اليشكري، عن أبيه قال: انتهيتُ إلى رجل يُحدِّث قوماً فجلستُ، فقال: وُصِفَ لي رَسُولُ اللهِ ﷺ وأنا بِمنىً غادياً إلى عَرَفاتٍ، فجعلتُ أَتشَرَّفُ الرِّكابَ كلما رُفِعَتْ لي جماعَةٌ دفعتُ إليهم حتى أتيتُ إلى جماعةٍ من رَكْبٍ، فانطَلَقْتُ فَقَدَمْتُهُمْ فنظرتُ فَعرفتُهُ بالصِّفَةِ، فتقدَّمتُ بينَ يدَي الركابِ، فلما دَنَوْتُ، قالَ بعضُهُم: خَلِّ عن وجوهِ الرِّكابِ يا عبدَ اللهِ، فقال رسول الله ﷺ:

«دَعُوهُ فَأَرَبٌ مَا لَه»، فَدَنوتُ فأخذتُ بالزِّمامِ ـ أو قالَ: بالخِطَامِ ـ فقلت: يا رسول الله حَدِّثْني بعَمَلٍ يُقَرِّبني إلى الجنةِ ويُباعدني منَ ٱلنَّارِ؟

قال: «تُقيمُ الصَّلاةَ، وتُؤتي الزكاةَ، وتحجُّ ٱلْبيت، وتَصُومُ رمضانَ، وتُحِبُّ للنّاس ما تُحِبُّ أَن يُؤتى إليكَ، وتَكرَهُ لَهُمْ مَا تكرَهُ أَنْ يُؤتى إليكَ. خَلِّ عَنْ وجوهِ الرِّكابِ».

إسناده ضعيف، عبد الله اليشكري ـ وهو ابن أبي عقيل ـ ذكره الحافظ في «التعجيل»، وقال: روى عنه ابن المغيرة، ليس بالمشهور، وأخرجه أحمد (١٥٨٨٣) ويشهد لقوله: حدثني بعمل... حديث أبي أيوب عند البخاريُّ (١٣٩٦).

قوله: «فَأَرَبٌ مَا له» أي: فحاجة جاءت به فدعوه، و «ما» صلةٌ، والإرب والإربة والمأرُبةُ: الحاجةُ، وروى بعضهم: أرِبَ على الفعل الماضي، قال ابن الأعرابي: معناه، أي: احتاج فسأل، فماله.

وقال القتيبي: أرِبَ، أي: سقطت آرابُه، أي: أعضاؤه وأصيبت، وهذه كلمة لا يراد بها وقوع الأمر، كقولهم: تَرِبَتْ يداك، وقيل: ظاهره دعاء، ومعناه التعجب، فيجري مجرى قوله: «لله دَرُّكَ».

ويروى: أرِبٌ بضم الباء وتنوينها، معناه: الرجل أرِبٌ، أي: حاذقٌ، أي: ذُو أرَبٍ وخِبرةٍ، يقال: أرُبَ الرجل بضم الراء إذا صارَ ذا فطنةٍ.

٩ ـ عن أبي أُمَامةَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يَخطُبُ في حَجَّةِ الوَدَاع، فقالَ: «اتقوا اللهَ، وصَلُّوا خَمْسَكُم، وصُومُوا شَهْرَكُم، وأَدُّوا زكاةَ أَموالِكُمْ، وأَطيعُوا ذا أَمرِكم تَدخلوا جَنَّةَ رَبِّكُم». قال: قلتُ لأَبِي أُمَامَةَ: منذُ كَمْ سَمِعتَ هذا الحديث؟ قال: سَمعتُهُ وأَنا ابنُ ثلاثينَ سنةً.

هذا حديثٌ صحيح، أَخرجه أَحمد (٢٢١٦١)، والترمذي (٦١٦) وقال أبو بكر بن العربي في «عارضة الأَحوذي» ٣ ـ ٩٢: قوله: «وصلُّوا خَمْسَكم» دليلٌ على سُقوط وجوب الوترِ، وهو الصحيحُ، وقد بَيَّناه وحقَّقْنا أَنَّ مَن ادَّعى صلاةً سادسةً فعليه الدليل، ولا دليل لاحتمال الأَحاديثِ التي تعلَّقوا بها.

١٠ ـ عن معاذ بن جبلٍ، قال: كنتُ مَعَ رَسُول الله ﷺ في سَفرٍ، فأَصبَحْتُ يوماً قريباً منهُ وهو يَسيرُ، فقلتُ: يا رسولَ الله أَخبرني بعَمَلٍ يُدخلني الجنَّةَ، ويُباعدني منَ ٱلنَّار؟ قال:

«قد سَألتَ عَنْ عَظِيم، وإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عليهِ، تَعْبُدُ اللهَ ولا تُشْرِكُ بِهِ شيئاً، وتقيمُ ٱلصَّلاةَ، وتُؤتي الزكاةَ، وتصومُ رَمضانَ، وتَحُجُّ ٱلْبَيْتَ».

ثم قال: «أَلا أَدُلُّكَ على أبواب الخير؟ ٱلصَّومُ جُنَّةٌ، وٱلصَّدَقَةُ تُطفىء الخطيئةَ، وصلاةُ الرَّجُل في جَوف الليل» ثُم قَرأ ﴿تتجافَى جُنوبُهم عَن المَضَاجِع﴾ حتى بلغ ﴿جزاءً بما كانوا يعملون﴾ [السجدة: ١٧، ١٨].

ثُمَّ قال: «أَلا أُخبِرُكَ برأسِ الأَمرِ وعَمُودِهِ وذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟» قلتُ: بلى يا رسولَ الله، قال: «رأسُ الأَمْرِ الإسلامُ، وعَمُودُه ٱلصَّلاةُ، وذِرْوَةُ سَنامِهِ الجهادُ».

ثم قال: «أَلا أُخبرُك بِملاكِ ذلك كلِّهِ؟» قلتُ: بلى يا نبيَّ الله، قال: فأخذ بِلسانهِ، وقال: «اكْفُفْ عليكَ هذا» فقلت: يا رسول الله وَإنا لَمؤاخذون بما نَتكلَّمُ به؟ فقال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا مُعاذُ، وهَل يَكُبُّ ٱلنَّاسَ في ٱلنَّارِ على وجُوهِهِم أَو قالَ: على مَناخِرِهم - إلا حَصَائِدُ أَلسِنَتِهِمْ».

أخرجه الترمذي (٢٦١٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وهو حديثٌ صحيح بطُرُقِهِ.

ذِرْوَةُ السنام: أعلاه.

وقوله: «إلا حصائِد ألسنتهم»: يعني ما يقتطعه من الكلام، شُبه بما يُحصد من الزرع إذا جُزَّ، وقولهُ: ﴿حتى جعلناهم حصيداً خامدين﴾ [الأنبياء: ١٥] أي: حُصدوا بالسيف والموت حتى خمَدوا، وخمود الإنسان: موته.

١١ - عن عبدالله بن عَمرو: قال: قال ٱلنبيُّ ﷺ: «المُسلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسلِمُونَ منْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، والمُهَاجِرُ مَنْ هَجَر مَا نَهى الله عَنهُ».

أخرجه البخاري (١٠)، ومسلم (٤٠).

قوله: «مَن سَلم المسلمون» أراد أن المسلم الممدوحَ، والمهاجرَ الممدوحَ مَنْ هذِه صفتُه، لا أنّ الإسلامَ يَنتفي عَمَّن لم يكن بهذه الصفَة، فهو كقولهم: الناسُ العربُ، والمال الإبلُ، يريدُ الأفضلَ منها، كذلك أفضلُ المسلمينَ مَنْ جَمع إلى أداء حقوق الله تعالى أداءَ حقوقِ المسلمين، والكفَّ عن أعراضهم، وأفضل المهاجرينَ من جمعَ إلى هِجران وطنه هِجرانَ ما حرَّمَ الله عليه.

١٢ - عن أبي موسيقال: قُلنا: يا رسولَ الله أَيُّ الإسلامِ أَفضَلُ؟ قال: «مَنْ سَلِمَ المُسلِمُونَ من لِسَانهِ ويَدِهِ».

أخرجه البخاري (١١)، ومسلم (٤٢).

قوله: «أيُّ الإسلام أفضلُ» أي: أيُّ خصال الإسلام أفضل.

١٣ ـ عن فَضَالةَ بن عُبَيد قال: قال رسول الله ﷺ في حَجَّةِ الوداع: «ألا أُخبِرُكم بالمؤمن؟ المُؤمِنُ مَنْ أَمِنَهُ ٱلنَّاسُ على أموالهم وأَنفُسِهم، والمسلِمُ مَنْ سَلِمَ ٱلنَّاسُ من لسَانِهِ ويَده، والمجاهدُ من جاهدَ نفسَهُ في طاعةِ اللهِ، والمهَاجِرُ من هَجَرَ الخطايا والذُّنوبَ».

هذا حديثٌ صحيح. أَخرجه أحمد (٢٣٩٦٧).

١٤ ـ عن جابر بن عبد الله قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله أَيُّ الإسلام أَفضَلُ؟ قال: «أَنْ يَسلَمَ المُسلمُونَ من لِسانكَ وَيدِكَ» قال: فأَيُّ الجهادِ أَفضَلُ؟ قال: «أن يُعْقَرَ جوادُكَ، ويُهرَاقَ دَمُكَ» قال: فأَيُّ ٱلصَّلاةِ أَفضَلُ؟ قال: «طولُ ٱلْقُنُوتِ».

إسناده حسن وأَخرجه أحمد (١٥٢١٠)، وقوله: «أي الصلاة أَفضل» أخرجه مسلم (٧٦٥).

١٥ ـ عن سفيان بن عبدالله الثَّقَفي قال: قلتُ: يا رسولَ الله قل لي في الإسلام قَولاً لا أَسأَلُ عنهُ أَحداً بَعدَكَ، قال: «قل: آمَنتُ باللهِ. ثم استَقِمْ».

أخرجه مسلم (٣٨)، وأحمد (١٥٤١٧).

روي أن عمر بن الخطاب تلا هذه الآية: ﴿إنَّ الذينَ قالوا رَبُّنَا الله ثم استقامُوا﴾ [فصلت: ٣٠]، قال: استقاموا والله لله، ولم يروغوا رَوَغانَ الثعالبِ. أخرجه الطبري ٢٤ ـ ٧٣.

وروي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: لم يشركوا بالله شيئاً.

وقيل: استقاموا على الطاعةِ، يقال: أقامَ واستقام، كما يقال: أجاب واستجاب.

باب

بيانِ أن الأعمال من الإيمان
وأن الإيمان يزيدُ وينقُصُ والردِّ على المرجئة

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ومَا زَادَهُمْ إلا إيْماناً وتَسْلِيماً﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وقال جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ويَزدَادَ الذينَ آمَنُوا إيماناً﴾ [المدثر: ٣١].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا الذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إيماناً﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُم إيماناً﴾ [آل عمران: ٧٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لِيَزْدَادُوا إيمانَاً مَعَ إيمانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] أي: يَرفعُ ٱلْعَملُ ٱلصَّالحُ ٱلْكلامَ الطَّيِّبَ.

قال أبو بكر بن العربي: إن كلام المرء بذكر الله إن لم يقترن به عمل صالح لم ينفع، لأن من خالف قولُه فِعْلَه، فهو وبال عليه، وتحقيق هذا أن العمل إذا وقع شرطاً في قبول القول أو مرتبطاً، فإنه لا قبول له إلا به، وإن لم يكن شرطاً فيه، فإن كَلِمَه الطيب يكتب له، وعمله السيِّىء يكتب عليه، وتقع الموازنة بينهما، ثم يحكم الله بالفوز والربح والخسران.

١٦ ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمانُ بِضْعٌ وسَبْعُونَ شُعْبَةً، وأَفضَلُها قَولُ: لا إله إلا اللهُ، وأَدناها: إِمَاطَةُ الأَذى عَن ٱلطَّريق، والحياءُ شُعْبَةٌ منَ الإِيمانِ».

أخرجه البخاري (٩١) ومسلم (٣٥).

وأراد بإماطة الأذى عن الطريق: ما يتأذى به المارة من شَوك أو حجر أو نحوه.

قال الخطابيُّ: معنى قوله: «الحياءُ شعبةٌ من الإيمان» أي: الحياءُ يحجز صاحبه عن المعاصي، فصار من الإيمان، إذ الإيمانُ ينقسمُ إلى ائتمارٍ لما أمر الله به، وانتهاءٍ عما نهى عنه.

وقال البغوي: وكما يترك الإنسان المعاصي للإيمان يتركها للحياءِ، ومنه الحديثُ «إذا لم تَسْتَحْي فاصنع ما شئت» أخرجه البخاري (٦١٢٠). يريد من لم يصحبهُ الحياء صنع ما شاء من ارتكاب الفواحش، ومقارنة القبائح، فلما كان الحياء سبباً يمنعه عن المعاصي كالإيمان عُدَّ الحياءُ من شُعَبِ الإيمان وإن لم يكن أمراً مكتسباً.

١٧ ـ عن أبي سعيد الخدري قال: خرج رسولُ اللهِ ﷺ في أَضْحَى ـ أو في فِطْرٍ ـ إلى المُصَلَّى، ثم انصرف فوعَظَ النَّاسَ، وأَمَرَهُمْ بالصَّدَقةِ، فقال:

«أَيُّها ٱلنَّاس تَصدَّقُوا» فَمَرَّ على ٱلنِّسَاءِ، فقال: «يا مَعْشَرَ ٱلنِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ، فإني أُريتُكُنَّ أَكثرَ أهلِ النَّارِ» فَقُلْنَ: وَبِمَ ذلك يا رَسُولَ الله؟ قال: «تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وتَكْفُرْنَ ٱلْعَشِيرَ، مَا رأيتُ من ناقصاتِ عَقْلٍ ودِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحازِمِ من إِحْدَاكُنَّ» قُلْنَ: ومَا نُقصَانُ دينِنا وعَقلِنا يا رسُولَ اللهِ؟ قال: «أَليسَ شَهَادةُ المَرأةِ مثلَ نصفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟» قُلْنَ: بلى يا رسولَ اللهِ، قال: «فذلك من نقصانِ عَقْلِهَا، أليسَ إذا حاضَت لم تُصَلِّ ولم تَصُمْ؟» قُلْنَ: بَلى، قال: «فذلكَ من نُقْصَانِ دِينها».

ثم انصرفَ، فلما سَارَ إلى منزلِهِ جَاءَتْ زينَبُ امرأَةُ ابنِ مَسْعُود تَسْتَأْذِن عَلَيه، فقيلَ: يا رسولَ الله هذهِ زَينبُ، فقالَ: «أَيُّ الزَّيانِبِ؟»

فقيلَ: امرأةُ ابن مَسْعُودٍ، قال: «نعم ائذَنُوا لها» فأُذِنَ لها، قالت: يا نبي الله إنَّكَ أَمَرْتَ ٱلْيومَ بالصَّدقَةِ، وكانَ عندي حُليٌّ لي، فأردتُ أنْ أَتَصَدَّقَ بِه، فَزَعمَ ابنُ مَسْعُود أَنَّهُ وَوَلَدَهُ أَحَقُّ مَنْ تَصَدَّقتُ بِهِ عَليهم؟.

فقال النبي ﷺ: «صَدَقَ ابنُ مَسْعُودٍ، زَوْجُكِ وَوَلَدُكِ أَحَقُّ مَنْ تَصَدَّقْتِ بِهِ عَلَيْهِمْ».

أخرجه البخاري (٣٠٤) ومسلم (٧٩).

قوله: «وتكفرن العشيرَ» يعني الزوج، سُمي عشيراً، لأنه يعاشرها وهي تعاشرُه.

قال الخطابي: فيه دليل على أن النقص من الطاعات نقصٌ من الدين، وفيه دلالة على أن مِلاك الشهادة العقلُ مع اعتبارِ الأمانة والصدق، وأن شهادة المُغَفَّلِ ضعيفةٌ وإن كان رضياً في الدين والأمانة.

قال البغوي: اتفقت الصحابة والتابعون، فمن بعدهم من علماء السنة على أن الأعمال من الإيمان، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿إنّما المؤمنون الذين إذا ذُكِرَ اللهُ وجِلَتْ قلوبُهُمْ...﴾ إلى قوله ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ [الأنفال: ٣، ٤] فجعل الأعمال كلَّها إيماناً، وكما نطقَ به حديثُ أبي هريرة.

وقالوا: إن الإيمان قولٌ وعملٌ وعقيدةٌ، يزيد بالطاعة، ويَنْقُص بالمعصية على ما نطقَ به القرآن في الزيادة، وجاء في الحديث بالنقصان في وصف النساء.

وروي عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «مِنْ أكملِ المؤمنين إيماناً أحسنُهم خُلُقاً وألطفهُمْ بأهله». أخرجه أحمد (٢٤٢٠٤) و(٢٤٦٧٧) بإسنادٍ صحيح.

وعن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ «من أحبَّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمانَ». إسناده حسن، أخرجه أحمد (١٥٦١٧) وأبو داود (٤٦٨١).

وكتب عمرُ بن عبدالعزيز إلى عدي بن عدي: إن للإيمان فرائض وشرائعَ وحدوداً وسُنَناً، فمن استكملها استكمل الإيمانَ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعِشْ فسأبينها لكم حتى تعملوا بها، وإن أمُتْ، فما أنا على صُحبتكم بحريص.

واتفقوا على تفاضُل أهلِ الإيمان في الإيمان وتبايُنِهم في درجاته، قال ابن أبي مُليكة: أدركتُ ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كُلُّهُم يخافُ النفاقَ على نفسه، ما منهم أحدٌ يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل.

وقال معاذ: اجْلِسْ بنا نُؤمن ساعةً.

وكرهوا أن يقول الرجل: أنا مُؤمنٌ حقاً، بل يقول: أنا مُؤمنٌ، ويجوز أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، لا على معنى الشك في إيمانه واعتقاده من حيث علمُه بنفسه، فإنه فيه على يقين وبصيرةٍ، بل على معنى الخوف من سوء العاقبة، وخفاء عِلم الله تعالى فيه عليه، فإن أمر السعادة والشقاوة يبتني على ما يعلم الله من عبده، ويختِم عليه أمره، لا على ما يعلمه العبدُ من نفسه، والاستثناء يكون في المستقبل، وفيما خفي عليه أمرُه، لا فيما مضى وظهر، فإنه لا يسوغ في اللغة لمن تيقن أنه قد أكل وشربَ أن يقول: أكلتُ إن شاء اللهُ، وشربت إن شاء اللهُ، ويصِح أن يقول: آكُل وأشرب إن شاء اللهُ.

ولو قال: أنا مؤمن من غير استثناءٍ يجُوزَ، لأنه مُؤمن بالله وملائكته وكُتُبه ورُسلِه، مقرٌّ بها من غير شك.

قال سفيان الثوريُّ: من كره أن يقولَ: أنا مؤمن إن شاء الله، فهو عندنا مُرجيء[1] يمدُّ بها صوته.

---

(١) المرجئة المبتدعة: هم الذين يقولون: لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة. وانظر «الرفع والتكميل»: ٣٥٢، للكنوي بتحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله.

وقال أيضاً: خالفَنا المرجئةُ في ثلاثٍ، نحن نقول: الإيمان قولٌ وعملٌ، وهمْ يقولون: قولٌ بلا عمل، ونحن نقول: يزيد وينقصُ، وهم يقولون: لا يزيدُ ولا ينقص، ونحن نقول: نحن مؤمنون بالإقرارِ، وهم يقولون: نحن مؤمنون عند الله.

وقال أيضاً: الناسُ عندنا مؤمنون مسلمون في المناكحة والطلاق والأحكام، فأما عند الله، فلا ندري ما هُم. وقال أيضاً: نحن مؤمنون والناسُ عندنا مؤمنون، وهؤلاء القوم يريدونَ منا أن نشهد أنا عند الله مؤمنون، ولم يكن هذا فَعَالَ من مضى، وكذلك لا يجوز لأحدٍ أن يقول: أنا مؤمن في علم الله، لأن علم الله لا يتغير، وقد يتبدلُ حالُ الإنسان، فيصبح الرجلُ مؤمناً، ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً، ويصبحُ كافراً، ونعوذ بالله من الخذلان، والكفر بعد الإيمان.

وقال النبي ﷺ فيما أخرجه البخاري (٦٤٩٣): «إنّ العبد ليعمل فيما يرى الناسُ بعمل أهل الجنةِ، وإنه من أهل النارِ».

قال الشيخ الإمام: وليعتبر المعتبرُ بإبليس، فإنه مع مكانته من حيث الظاهرُ فيما بين الملائكة قبلَ خلق آدم ﷺ، بدا له من الله ما لم يكن يحتسبُ، ولا يأمن مكرَ الله إلا القومُ الخاسرون، فنسأل الله الكريمَ حُسنَ العاقبة، والختم بالسعادة. ولذلك اتفقوا على أنه ليس لأحدٍ أن يحكم لنفسهِ، ولا لشخصٍ بعينهِ أنه من أهل الجنة، أو من أهلِ النارِ، لتَستُّرِ عواقب أمور العباد على الخلق. وحقيقةُ الإيمان ما يؤدي العبدَ إلى موعود الله تعالى من النعيم المقيم، بل نرجو للمطيع حُسنَ المآب، ونخافُ على المجرم سوءَ العذابِ، إلا الأنبياءَ ومن شهد له الرسولُ ﷺ بالجنة من الصحابة وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعبدالرحمن بن عوف، وأبو عبيدة ابن الجراح، والحسن، والحسين، ونساء النبي ﷺ، فإنا نقطعُ لهم بالجنة بقول رسول الله ﷺ، وقوله صدقٌ، وكذلك كلُّ مَنْ ورد فيه بعينه نصُّ كتاب أو سنة، حُكم به بنارٍ أو جنةٍ.

١٨ ـ عن أَبي جَمْرَةَ نَصْر بن عمران، قال: كنتُ أقعُدُ مَعَ ابن عباسٍ يُجلسُني على سَريرِهِ، فقال: أقِمْ عندي حتى أجْعَلَ لكَ سَهْمَاً من مالي، فأقَمْتُ مَعَهُ شَهرينِ، ثم قال:

إنَّ وَفْدَ عَبد ٱلْقيس لَمَّا أَتَوا ٱلنَّبي ﷺ قال: «مَنِ ٱلْقَوْمُ؟» أو: «مَنِ الوَفْدُ؟» قالوا: رَبيعَةُ، قال: «مَرْحَباً بالقَوم ـ أو بالوَفْدِ ـ غَيْرَ خَزَايا ولا نَدَامَى» قالوا: يا رسُولَ اللهِ إنَّا لا نَستطيعُ أنْ نَأتِيَكَ إلا في ٱلشَّهْرِ الحرَامِ، وبَيْنَنَا وبَيْنَكَ هذا الحيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ، فَمُرْنَا بأمْرٍ فَصْلٍ نُخْبِرُ بهِ مَنْ وَرَاءنا، ونَدْخُلُ بهِ الجَنَّةَ، وسَألُوهُ عن الأَشربَةِ، فَأَمَرَهُمْ بأرْبَعٍ، وَنَهاهُمْ عَنْ أرْبَعٍ، أمَرَهُمْ بالإيمانِ باللهِ وَحْدَهُ.

قال: «أَتَدْرونَ مَا الإيمانُ باللهِ وَحْدَهُ؟» قالوا: اللهُ ورسولُهُ أعْلَمُ، قال: «شَهادةُ أنْ لا إله إلا اللهُ، وأنَّ محمداً رَسُولُ الله، وإقامُ ٱلصَّلاةِ، وإيتَاءُ الزَّكاةِ، وَصِيَامُ رَمَضانَ، وأنْ تُعْطُوا مِنَ المَغْنَمِ الخُمُسَ».

ونَهَاهُمْ عَنْ أربع: عَن الحَنْتَمِ والدُّبَّاءِ وٱلنَّقِير والمُزَفَّت، وربَّما قال: «المُقَيَّر»، وقالَ: «احْفَظُوهُنَّ وأخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ».

أخرجه البخاري (٥٣) ومسلم (١٧).

قوله: «غير خزايا» فالخزايا: جمعُ خزْيان وهو الذي أصابه خِزيٌ وعارٌ، يقال: خَزِي الرجلُ خِزياً وهو خَزْيانُ، ويقالُ: خزي: إذا استحيا، والمصدر منه الخَزايةُ.

ومعناه أنهم دخلوا في الإسلام طوعاً لم يصبهم مكروهٌ من حرب أو سبيٍ يخزيهم، والنَّدامى مِن النَّدامةِ، وكانَ ينبغي أن يقول: نادمين، لأن الندامى جمع الندمان إلا أنه أخرجه على وزن خزايا، كما قالوا: إنه ليأتينا بالغدايا والعشايا، وإنَّما تُجمعُ الغداةُ بالغدوات. وهذا من تمامِ فصاحته وبلاغتِهِ صلواتُ الله عليه.

وقولهم: مُرْنَا بأمرٍ فصلٍ، أي بيِّنٍ واضح ينفصلُ به المراد، ولا يشكلُ. والحَنْتَمُ: الجرَّة يُريد الانتباذ فيها، والدُّبَّاء: القَرْعَةُ، والنقيرُ: أصلُ النخلة ينقر فيتخذُ منه أوعيةٌ ينتبذ فيها، والمُزفَّت: السقاءُ الذي قد زفت، أي: ربب بالزّفت، وهو القِير.

والنهي عن الانتباذ في هذه الأوعيةِ ليس لأعيانها، ولكن لِما أن هذه أوعيةٌ متينةٌ قد ينِشُّ الشرابُ فيها فيصيرُ مسكراً، ولا يعرفه صاحبه، فيشربه، وغير المزفَّت من أسقيةِ الأدَم إذا نشَّ فيها الشرابُ ينشقُّ، فيعلم به صاحبه، فيجتنبهُ، فإنْ علمَ أنهُ لم ينشَّ لقُرْبِ الزمان، فلا بأس بالشُّرْب منها كلها.

والدليل عليه ما روي أنّ النبي ﷺ قال: «كُنتُ نَهَيتُكُم عن الظروفِ فاشربوا في كل وعاء غيرَ أن لا تشربوا مُسْكِراً».

أخرجه مسلم (٩٧٧) (٦٥) من حديث بُرَيْدَة رضي الله عنه.

وفي الحديث: بيان أن الأعمال من الإيمان حيث فَسَّرَ الإيمان بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصومِ رمضانَ، وإعطاء الخمس من الغنيمة.وفيه: أن إبلاغ الخبر، وتعليم العلم واجبٌ حيث قال: «وأخبروا بهنَّ من وراءكم» والأمر للوجوب.

وقيل لوهب بن مُنَبِّهٍ: أليس «لا إله إلا الله» مفتاح الجنةِ؟ قال: بلى، ولكن ليس مفتاحٌ إلا لهُ أسنانٌ، فإذا جئت بمفتاح له أسنانٌ فتح لك، وإلاَّ لم يفتح لك.

باب

حلاوة الإيمان وحب الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ

قال الله سُبْحَانَهُ وتَعالى: ﴿والَّذين آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً للهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال عزَّ وَجلَّ: ﴿حَبَّبَ إِليكُمُ الإيمانَ وَزَيَّنَهُ في قُلوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]، وقال تَبارك وتَعالى: ﴿قُلْ إِنْ كانَ آباؤكُمْ وأَبنَاؤكُمْ وإِخْوانُكُمْ...﴾ الآية﴾ [التوبة: ٢٤]، وقيلَ في قوله سُبحَانهُ وتعالى: ﴿لا يَمسُّهُ إِلا المُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]: لا يَجِد طَعْمَهُ ونَفعَهُ إِلا مَنْ آمَنَ بالقُرآن، ولا يَحْمِلهُ بِحَقِّهِ إِلا المُوقِنُ، لقولِه سُبْحَانَهُ وتَعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ [الجمعة: ٥]. ذكره الفرّاء في «معاني القرآن» ٣ ـ ١٣٠ بنحوهِ.

١٩ ـ عن أنس، عن النبيِّ ﷺ قال: «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ وَجدَ حلاوةَ الإيمانِ: مَنْ كان اللهُ ورسُولُهُ أَحبَّ إليهِ ممَّا سِوَاهُما، ومَنْ أَحَبَّ عبداً لا يُحِبُّهُ إلا للهِ، ومَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ في ٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ كمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى في ٱلنَّارِ».

أخرجه البخاري (٢١) ومسلم (٤٣).

وقوله: «من يَكْرهُ أن يعودَ في الكُفرِ» فالعَوْدُ: قد يكون بمعنى الرجوع إليه بعدما دخل في الإسلام، وقد يكون بمعنى المصير إليه ابتداءً، ومنه قوله سبحانه وتعالى في قصة شُعيب ﷺ ﴿أو لتعودُنَّ في مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨] قال قوم مَعناهُ: لَتَصِيْرُنَّ إلى مِلَّتِنَا، لأن شعيباً لم يكن قطُّ على الكُفْر.

وقيل: الخِطابُ مع أصحاب شُعيَب الذين دخلوا في دينه واتبعوه بعدما كانوا كفّاراً.

٢٠ ـ عن أنس قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «لا يُؤمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إليهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وٱلنَّاسِ أَجْمَعينَ».

أخرجه البخاري (١٤) ومسلم (٤٤).

٢١ ـ عن عبدالله بن هشام قالَ: كُنَّا معَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وهو آخِذٌ بيَد عُمرَ بنِ الخطاب، فقال لهُ عُمَرُ: يا رَسُولَ اللهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِليَّ منْ كلِّ شيءٍ إلا نَفْسِي، فقال ٱلنبيُّ: «لا، والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إليكَ من نَفْسِك» فقال له عُمرُ: فإنَّهُ الآن واللهِ لأَنتَ أَحَبُّ إليَّ منْ نَفْسِي، فقال ٱلنبي ﷺ: «الآن يا عُمَر».

أخرجه البخاري (٦٦٣٢).

قال أبو سليمان الخطابي: لم يُرِدْ به حُبَّ الطَّبْع، بل أرادَ به حُبَّ الاختيار، لأنَّ حُبَّ الإنسان نَفْسَه طَبْعٌ، ولا سَبيلَ إلى قلبِهِ، فمعناه: لا تصدق فيَّ حتى تَفْدِيَ في طاعتي نفسَك، وتُؤثرَ رضاي على هواك، وإن كان فيه هلاكُكَ.

٢٢ ـ عن العباس بن عبد المطلب قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «ذاقَ طَعْمَ الإِيمانِ مَنْ رَضِيَ باللهِ رَبّاً، وبالإِسلامِ دِيناً، وَبِمحمَّدٍ رَسُولاً».

أخرجه مسلم (٣٤).

قال عمار بن ياسر: ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجد بهنَّ حَلاوةَ الإيمان: الإنفاقُ من الإقتارِ، وإنصافُ الناس من نفسك، وبذلُ السلام للعالَم. ذكره البخاري في كتاب الإيمان، باب (٢٠) تعليقاً، ووصله الحافظ ٱبن حجر في «تغليق التعليق» ٢/ ٣٦.

وقال عبدالله بن مسعود: ثلاثٌ من كُنَّ فيه يجد بهن حلاوة الإيمان: تركُ المِراءِ في الحق، والكذب في المُزَاحَةِ، ويعلمُ أن ما أصابه لم يكن ليُخْطِئَهُ، وأن ما أخطأهُ لم يكن ليُصِيبَهُ.

باب

ثواب من آمن من أهل الكتاب

قال الله سُبْحَانَهُ وَتعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ...﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ [القصص: ٥٤].

وقال الله سُبْحَانَهُ وتَعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ من رَحْمَتِهِ﴾ [الحديد: ٢٨] أي: نَصِيبَيْنِ.

٢٣ ـ عن أبي موسى أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «ثَلاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَين: رَجُلٌ كانتْ لهُ جَاريةٌ فأَدَّبها، فأَحْسَنَ أَدَبَهَا، ثمَّ أَعْتَقَها، وتَزَوَّجها، ورجلٌ من أَهلِ ٱلكتاب آمنَ بكِتابهِ، وآمنَ بمحمد ﷺ، وعبدٌ أَحسَنَ عِبَادةَ اللهِ، ونَصَحَ سَيِّدَهُ».

أخرجه البخاري (٩٧) ومسلم (١٥٤).

٢٤ ـ عن عليّ بن صالح، عن أبيه قال: كنتُ عند ٱلشَّعبي، فجاءَهُ رجلٌ من أَهْلِ خُراسانَ، فقال: إنَّ الرَّجُلَ عندنا إذا أَعْتَقَ سُرِّيَّتَهُ، ثمَّ تَزوجها يُدعى كالراكِبِ بَدَنَتَهُ، قال: فقال ٱلشَّعْبي: حَدَّثني أَبو بُرْدَةَ بنُ أَبي موسى، عن أبيهِ، عن النبي ﷺ قال: «أَيُّما رَجُلٍ كانت له جارية، فأَدَّبَها فأَحسَنَ تأْدِيبَها، وعلَّمها فأَحسَنَ تَعلِيمَها، ثم أَعتَقَها وتزوجها، فَلهُ أَجرانِ، وأَيُّما مملُوكٍ أَدى حَقَّ اللهِ وحَقَّ مَواليهِ، فَلهُ أَجرانِ، وأَيُّما رَجُلٍ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، ثمَّ آمنَ بمحمَّدٍ ﷺ فَلَهُ أَجرانِ» قال ٱلشَّعْبي: أَعْطَيْتُكَها بغيرِ شَيءٍ، إنْ كانَ يُركَبُ فيما هُوَ أَدْنَى منهُ إلى المدِينَةِ.

أخرجه البخاري (٣٠١١) ومسلم (١٥٤) (٢٤١).

ونقل الحافظُ في «فتح الباري» ٦ ـ ٢٥٤ عن المهلَّب بن أبي صُفْرة شارح«صحيح البخاري» قَوْلَه: «جاءَ النصُّ في هؤلاء الثلاثةِ لِيُنَبِّه به على سائرِ مَنْ أَحْسَنَ في مَعْنَيَيْن في أَيِّ فِعْلٍ كانَ من أَفعالِ البِرِّ».

باب

من أسلم على ما سلف له من الخير

٢٥ ـ عن حكيم بن حِزَام، قال: قلتُ: يا رسولَ الله أَرأَيتَ أُموراً كُنْتُ أَتَحنَّثُ بِها في الجاهِليةِ من عَتَاقَةٍ، وَصِلَةِ رَحِم، هَلْ لي فيها أَجْرٌ؟ فقال له ٱلنبي ﷺ: «أَسْلَمْتَ على مَا سَلَفَ لكَ مِنْ خَيْرٍ».

أخرجه البخاري (٢٢٢٠) ومسلم (١٢٣).

قوله: «أتحنَّثُ» يريد به التَعبُّدَ، والحِنْثُ: الذنبُ، والتحنث: أن يفعل ما يلقي به عن نفسه الحِنث، وكذلك التحرُّج والتأثُّمُ: أن يفعل ما يُلقي به عن نفسه الحرج والإثم.

وقوله: «أسلمت على ما سلف لك من خير» أي: على حيازة ما سلف لك من خير، أو على قبول ما سلف لك.

ويُرْوى: أنَّ حسناتِ الكافر إذا خُتِم له بالإسلام مقبولةٌ فإن مات على كفره كانت هدَراً.

٢٦ ـ عن ابن مسعود قال: قال رجل للنبي ﷺ: أَرأَيْتَ الرَّجُلَ يُحسِنُ في الإسلام، أَيُؤَاخَذُ بما عَمِل في الجاهِليَّةِ؟ قال: فقال ٱلنبي ﷺ: «مَنْ أَحْسَنَ في الإسلامِ، لم يُؤاخَذْ بما عَمِلَ في الجاهليةِ، ومَنْ أَسَاء في الإسلامِ أُخِذَ بالأَوَّلِ والآخرِ».

أخرجه البخاري (٦٩٢١) ومسلم (١٢٠).

ومعنى الحديث على ما ذكره النووي عن المحقِّقين في «شرح مسلم»١ ـ ٤١٣: أنَّ المراد بالإحسان هنا الدخول في الإسلام بالظاهر والباطن جميعاً، فهذا يُغْفَرُ له ما قد سلف بنصّ القرآن، والمراد بالإساءة عدمُ الدخولِ في الإسلامِ بقلبِه، بل يكون منقاداً في الظاهر للشاهدتين غير معتقدٍ للإسلام بقلبه فهذا هو المنافق.

باب

البيعة على الإسلام وشرائعه والقتال مع من أبى

قال الله سبحانهُ وتعالى: ﴿وقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ويكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

٢٧ ـ عن عُبَادَةَ بنِ ٱلصَّامِتِ ـ وكانَ شَهِدَ بَدْراً، وهو أَحَدُ ٱلنُّقَباءِ لَيْلَةَ ٱلْعَقَبَةِ ـ قال: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال ـ وحَولَهُ عِصَابةٌ مِنْ أَصحابِهِ ـ:

«بَايِعُوني على أَنْ لا تُشْرِكُوا باللهِ شيئاً، ولا تَسْرِقُوا، ولا تَزْنُوا، ولا تَقْتُلوا أَولادَكُمْ، ولا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بينَ أَيدِيكُم وأَرجُلِكُمْ، ولاتَعْصُوا في مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفى مِنْكُمْ، فأَجْرُهُ على الله، ومَنْ أَصَابَ منْ ذلكَ شيئاً فَعُوقِبَ في الدُّنيا، فَهوَ كفَّارَةٌ[1]، ومَنْ أَصابَ من ذلك شيئاً، ثم سَتَرَهُ اللهُ، فهو إلى اللهِ، إنْ شاءَ عَفَا عَنْهُ، وإنْ شاءَ عَاقَبَهُ» فَبايعناهُ على ذلك.

أخرجه البخاري (١٨) ومسلم (١٧٠٩).

قوله: «ولا تأتوا ببهتانٍ تفترونه بين أيديكم وأرجلكم» قال الخطابي: يقال: بهت الرجلُ صاحبَه يَبْهَتُ بَهْتاً وبُهْتاناً، وهو أنْ يكذب عليه الكذب الذي يُبهت

---

(١) زاد أحمد «له» وكذلك هو للبخاري من وجه آخر في باب المشيئة من كتاب التوحيد.

من شدة نُكْره، ويتحير فيه، فيبقى مبهوتاً. والمراد منه قَذْفُ أهل الإحصان، ويدخل فيه رَمْيُ الناس بالعظائم، وما يلحق به العار والفضيحة.

وقوله: « تفترونه بين أيديكم وأرجلكم» ذكر اليد والرجل مع أنه لا صنع لهما فيه، وهو على وجهين. أحدهما: أن معظم أفعال الناس إنما يُضاف إلى الأيدي والأرجل، لأنها العوامل، وإن شاركهما سائر الأعضاء، كما إذا أولاه صاحبُه معروفاً، يقول: صنع فلان عندي يداً، وله عندي يد، والصنائع: الأيادي، وقد يُعاقَبُ الرجل على جناية لسانه، فيقال له: هذا بما كسبت يدك، واليد لا فعل لها فيه.

فمعنى الحديث: لا تبهتوا الناس افتراءً واختلاقاً بما لم تعلموه منهم، فتجنوا عليهم من قِبَل أيديكم وَأرْجُلِكُمْ، أي: من قِبَل أنفسكم جنايةً تفضحونهم بها، وهم بُرَآءُ، واليد والرجل كناية عن الذات.

والوجهُ الآخر: أن لا تبهتوا الناس بالعيوب كفاحاً يشاهدُ بعضُكم بَعْضاً، كما يقال: فعلت هذا بين يديك، أي: بحضرتك، وهذا النوع أشد ما يكون من البَهْت.

وقوله سبحانه وتعالى في امتحان النساء: ﴿ولا يأتِين ببُهْتَانٍ يَفتَرينَهُ بَينَ أَيدِيهِنَّ وأرْجُلِهِنَّ﴾ [الممتحنة: ١٢] يحتمِل مع الوجهين وجهاً ثالثاً، وهو أن تلتقط المرأة لقيطاً، وتقول لزوجها: هذا ولدي منك، فتلحق بزوجها ولداً ليس منه: هو البُهتان المفترى بين أيديهنَّ وأرجلهنَّ، وذلك أن المولود إذا وضعته الأم يسقط بين يديها ورجليها، وحِضانته وتربيته في الصغر تكون بين الأيدي والأرجل، فأَخَذَ عليهن من الشرط أن لا يأتين بكذبٍ وبُهتانٍ من الفعل محله بين الأيدي والأرجل، وليس المراد منه أن تأتي بولدٍ من الزنى، فتنسبه إلى الزوج، لأن شرط النهي عن الزنى، قد تقدم ذكره.

وقيل: كنى بما بين يديها ورجليها عن الولد، لأن فرجها بين الرجلين وبطنها الذي يحمله بين اليدين، والله أعلم.

٢٨ ـ عن جرير بن عبدالله قال: بايَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ على شَهَادَةِ أَنْ لا إلـه إلا اللهُ، وأَنَّ محـمـداً رَسُـولُ الله، وإقَـامِ الـصَّـلاةِ، وإيـتَـاءِ الزَّكاةِ، وٱلسَّمعِ وٱلطَّاعَةِ، وٱلنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ.

أخرجه البخاري (٢١٥٧) ومسلم (٥٦).

٢٩ ـ عـن أبـي هـريـرة قـالَ: قـالَ رَسُـولُ الله ﷺ: «لا أَزَالُ أُقَـاتِـلُ ٱلنَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لا إله إلا اللهُ، فإذا قَالُوا: لا إله إلا اللهُ، فقد عَصَمُوا مِنِّي أموالَهُمْ وأَنْفُسَهُمْ إلا بِحَقِّها، وحِسَابُهُمْ على اللهِ».

٣٠ ـ عن أبي هريرة قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أنْ أُقَاتِلَ ٱلنَّاسَ حَتَّى يقولُوا: لا إله إلا اللهُ، فإذا قالوا: لا إله إلا اللهُ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وأموالَهُمْ إلا بِحَقِّها وحِسَابُهُمْ على اللهِ».

أخرجه البخاري (١٣٩٩) ومسلم (٢١).

وقوله: «حتى يقولوا: لا إله إلا الله» أراد به عَبَدَةَ الأوثان دون أهل الكتاب، لأنهم يقولون: لا إله إلا الله، ثم لا يُرفع عنهم السيفُ حتى يقرُّوا بنبوة محمد ﷺ، أو يعطوا الجزية.

ونقل الحافظ في «الفتح» ١٢ ـ ٢٤٧ عن المصنف: «أن الكافر إذا كان وثنياً أو ثَنَوياً لا يقر بالوحدانية، فإذا قال: لا إله إلا الله، حكم بإسلامه، ثم يجبر على قبول جميع أحكام الإسلام، ويبرأ من كل دين خالف دين الإسلام. وأما من كان مُقِرّاً بالوحدانية، منكراً للنبوة، فإنه لا يحكم بإسلامه حتى يقول: محمد رسول الله، فإن كان يعتقد أن الرسالة المحمدية للعرب خاصة، فلا بد أن يقول: إلى جميع الخلق، فإن كان كفر بجحود واجب، واستباحة محرم، فيحتاج أن يرجع عما اعتقده».

وقوله: «وحسابهم على الله» معناه: فيما يستسرُّون به دون ما يُخِلُّون به من الأحكام الواجبة عليهم في الظاهر، فإنهم إذا أخلوا بشيء مما يلزمهم في الظاهر

يُطالبون بمُوجَبِه، كما قاتل الصديق رضي الله عنه القوم على منع الزكاة، يدل عليه أنه صرح ببعضه في حديث ابن عمر.

٣١ ـ عن ابن عمر أَنّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «أُمِرْتُ أَن أُقَاتِلَ ٱلنَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَن لا إله إلا الله، وَأَنّ مُحمَّداً رَسُولُ اللهِ، ويُقِيمُوا ٱلصَّلاةَ، ويُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فإذا فعَلُوا ذلك عَصَمُوا مِنّي دِمَاءَهم وأَموَالَهُمْ إلا بِحَقِّ الإِسلاَمِ، وَحِسَابُهمْ على اللهِ».

أخرجه البخاري (٢٥) ومسلم (٢٢).

قال الخطابي: إنما اختلفت الألفاظ لاختلاف الأوقات، فإن فرائض الدين كانت تُشرع شيئاً بعد شيءٍ، فالحديثُ الأول كان قبل وجوب هذه الفرائض، والحديثان الآخران بعد وجوبها.

قال البغوي: يعني: لا يلزم الكفُّ عنهم إلا بعد التزامها.

وفي الحديث دليلٌ على أن توبة الزِّنديق مقبولةٌ، وسريرته إلى الله موكولةٌ، وهو قول أكثر أهل العلم، وعند مالك وأحمد: لا تُقبل توبةُ الكافر المستسرّ بكفره.

وفي «مختصر اختلاف الفقهاء» ٣/ ٥٠١ للجصاص عن أبي يوسف: أرى إذا أُتيتُ بزنديقٍ، أمَرْتُ بضربِ عُنُقِهِ ولا أَسْتَتِيبُهُ، فإن تاب قَبْلَ أن أَقتُلَه لم أَقتُلْه وخَلّيْتُه. وذكر في «المغني» ٨/ ٨٨: أَنَّ قبولَ توبة الزنديق هو إحدى الروايتين عن أحمد، واختاره أبو بكر الخلاَّل وقال: إنَّه أَوْلى على مذهب أَبي عبدالله، وقد فصَّل أبو يعلى الفرَّاء وَجْه الروايتين في كتابه «الروايتين والوجهين» ٢/ ٣٠٥. وانظر: «جامع العلوم والحكم» ١/ ٢٣٧.

٣٢ ـ عن أنس بن مالك قال: قال رَسول الله ﷺ: «أُمِرتُ أَنْ أُقاتِلَ ٱلنَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لا إِله إِلا الله، فإذا قَالُوهَا، وصَلَّوْا صَلاتَنَا،

واستَقْبَلُوا قِبْلَتَنَا وذَبَحُوا ذبيحَتَنا، فقَد حَرُمَتْ علينا دِمَاؤهُمْ وأَمْوالُهُمْ إلا بِحقِّها، وحِسَابُهُم عَلَى اللهِ».

أخرجه البخاري (٣٩٢).

وفي الحديث دليلٌ على أن أمور الناس في معاملة بعضِهم بَعْضاً إنما تجري على الظاهر من أحوالهم دون باطنها، وأن من أظهر شِعارَ الدين أجري عليه حكمهُ، ولم يُكشَفْ عن باطن أمره. ولو وُجِد مختونٌ فيما بين قتلى غُلْفٍ، عزل عنهم في المدفن، ولو وجد لقيط في بلد المسلمين حكم بإسلامه.

وقال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» ١ ـ ٢٣٦: «وقوله ﷺ: «وحسابُهم على اللهِ عزَّ وجلَّ» يعني أَنَّ الشهادتين مع إقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ تَعْصِمُ دَمَ صاحبِها ومالَهُ في الدنيا إلاّ أَنْ يأتي ما يُبيحُ دَمَهُ. كالردة وقَتْلِ النفس والزِّنى بعد الإحصانِ وسبِّ الرسولِ ﷺ.

باب

علامات النفاق

قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى: ﴿في قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] أي: شَكٌّ ونِفَاق.

وقَالَ اللهُ عَزّ وجَلَّ في مُنافِقِي ٱلْكُفّار ﴿وإذا قَامُوا إلى ٱلصَّلاةِ قامُوا كُسَالَى يُراؤُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢].

وقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالى: ﴿ولا يَأْتُون ٱلصَّلاةَ إلاّ وَهُمْ كُسَالَى، ولا يُنْفِقُونَ إلاّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

وَقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مُذَبْذَبينَ بينَ ذلِكَ﴾ [النساء: ١٤٣] أَي: مُتَرَدِّدِينَ، لا إلى المُسْلِمِين، ولا إلى ٱلْكَافِرينَ، والمذبذبُ: المُضْطَرِبُ الذي لا يَبْقَى على حَالَةٍ مُستَقِيمَة.

وسُمِّي المنافِق منافِقاً، لأَنَّهُ يَستُرُ كُفْرَه، وَيُغَيِّبُهُ، فَشُبِّهَ بالَّذي يَدخُلُ ٱلنَّفَقَ، وهو ٱلسَّرَبُ، فيَسْتَتِرُ بهِ. وقِيل: سُمِّي بهِ مِن نافِقَاءِ ٱلْيَرْبوعِ، فإِنَّ ٱلْيَرْبوعَ لَهُ جُحْرٌ يُقال لَهُ النَّافِقاءُ، وآخَرُ، يُقالُ لَهُ ٱلْقاصِعَاءُ، فإذا طُلِبَ مِن ٱلْقَاصِعَاءِ قَصَعَ، فخرج مِن ٱلْنَّافِقَاءِ، كذا المنافِقُ يَخْرُج من الإيمَانِ مِن غير الوَجْهِ الَّذِي يَدخُل فيه.

٣٣ ـ عن أبي هريرة: أَن رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «آيَةُ المُنَافِقِ ثلاث: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذَا اؤْتُمِنَ خانَ».

أخرجه البخاري (٣٣) ومسلم (٥٩).

٣٤ ـ عن أبي هريرة: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه، فهو مُنافِقٌ». زَادَ إبراهِيمُ: «وإنْ صَامَ وصَلَّى وَزَعمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ» قالا جميعاً: «مَنْ إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذا اؤْتُمِنَ خانَ».

أخرجه مُسْلم (٥٩) (١١٠).

وإبراهيم هو ابن الحجاج السامي أحد رواة الحديث.

٣٥ ـ عن عبدالله بن عَمرٍو: أَنَّ ٱلنبي ﷺ قال: «أربَعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ كانَ مُنَافِقاً خَالِصَاً، ومَنْ كانتْ فيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كانتْ فيه خَصْلَةٌ مِنَ ٱلنِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَها: إذا اؤْتُمِنَ خانَ، وإذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا عاهَدَ غَدَرَ، وإذا خاصَمَ فَجَرَ».

أخرجه البخاري (٣٤) ومسلم (٥٨).

قال الإمام النووي في «شرح صحيح مسلم» ١ ـ ٣٢٣: «الذي قاله المحقِّقون والأكثرون وهو الصحيحُ المختارُ أَنَّ معناه: أَنَّ هذه الخصالَ خِصالُ نِفاقٍ، وصاحبُها شبيه بالمنافقين في هذه الخصالِ ومُتخلِّقٌ بأَخلاقِهم، فإِنَّ النفاقَ هو

إظهارُ ما يُبْطنُ خِلافَه. وهذا المعنى موجودٌ في صاحب هذه الخصال، فيكون نفاقُه في حَقِّ مَنْ حدَّثه ووعده وائتمنه وخاصمه من الناسِ، لا أنَّه منافق في الإسلام، ولم يُرِد النبيُّ ﷺ بهذا أنَّه منافقٌ نِفاقَ الكُفَّارِ المُخَلَّدين في الدرك الأَسفل من النارِ».

٣٦ ـ عن أنس قال: قَلَّمَا خَطَبَنا رَسُولُ اللهِ ﷺ إلاَّ قال:

«لا إيمانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ، ولا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ».

هذا حديثٌ جيدٌ قويٌّ، أخرجه أحمد (١٢٣٨٣) والبيهقي في «الكبرى» ٦/ ٢٢٨ وصححَّه ابن حبان (١٩٤) وهو في «شرح مشكل الآثار» ١٠/ ٤٢ (٣٨٩٧) وفيه تمامُ تخريجه. وقال المُناوي في «التيسير بشرح الجامع الصغير» ٢/ ٤٨٨: «وهذا وأمثالُه وعيدٌ لا يُراد به الوقوع، بل يُراد به الزَّجْرُ والرَّدْعُ ونَفْيُ الكمالِ والفضيلةِ».

قال عمر بن الخطاب: لا يغرنَّكَ صلاةُ امرىءٍ ولا صِيامُهُ، مَن شاءَ صَلَّى، ومَن شاءَ صَامَ، ولكن لا دِينَ لمن لا أَمَانَةَ لَه.

٣٧ ـ عن عبدالله بن عَمْرو بن العَاص قال: قال رسول الله ﷺ: «أَكْثَرُ مُنافِقِي أُمَّتي قُرَّاؤُهَا».

هذا حديثٌ صحيح، أخرجه أحمد (٦٦٣٣)، والبيهقي في الشُّعَب (٦٩٥٨) والمُرادُ به نِفاقُ العملِ وهو الرياءُ لا الاعتقادُ.

قال سفيان الثوريُّ: مَا شَبَّهْتُ القَارِىءَ إلا بالدِّرهمَ الزَّيْف إذا كسَرتَه خرجَ مَا فِيْهِ.

قال أبو سليمان الخَطابي على قوله: «آية المنَافِق ثلاث»: هذا القول إنما خرج على سبيل الإنذارِ للمَرْءِ المُسْلم، والتحذير لَهُ أن يعتَادَ هذه الخصال، فتُفضيَ به إلى النِّفَاق، لا أنّ مَن بَدَرَتْ منه هذه الخِصَالُ، أو فَعل شيئاً من ذلك من غير اعتيادٍ أنّه منافِقٌ.

وروي عن الحسن أنه ذكر له هذا الحديثُ، فقال: إنّ بني يعقوب حدثوا فكذَبُوا، ووعدوا فأخلفوا، واؤتُمِنُوا فخانوا.

والنِّفاق ضربان: أحدهما: أن يُظهِرَ صَاحِبُه الإيمانَ وهو مُسِرٌّ للكُفر كالمنافقين على عهد رسول الله ﷺ.

والثاني: ترك المحافظة على حدود أمور الدين سراً، ومراعاتُها علناً، فهذا يُسمى منافقاً، ولكنه نفاق دون نفاق، كما قال النبي ﷺفي الحديث المتفق عليه: «سِبابُ المُسْلِم فسُوقٌ وقتاله كُفرٌ»، وإنما هو كُفْرٌ دون كُفرٍ.

وأما بنو يعقوب، فكان ذلك الفعل منهم نادراً، ولم يُصرُّوا عليه، بل تابوا وَتحلَّلُوا ممَّنْ جَنَوْا عليه، وسألوا أباهم أن يستغفر لهم، فلم تتمكن منهم صفةُ النِّفاقِ.

وقوله: «أَكْثَرُ منافِقي أمّتي قُرّاؤُهَا» فهو أن يعتاد ترك الإخلاص في العمل، كما جاء: « التَّاجِرُ فَاجِرٌ» أخرجه الترمذي (١٢١٠) بإسنادٍ حسنٍ، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢٠٧٧) وصححه ابن حبان (٤٩١٠). وأراد: إذا اعتاد التاجر الكذب في البيع والشراء، لا أن نفس التجارة فجورٌ، بل هي أمر مأذون فيه، مباح في الشرع.

قال الإمام الطحاوي في «شرح المشكل» ٥/ ٣٢٧: فقال قائلٌ: كيف تقبلون هذا على رسولِ الله ﷺ وقد أَحلَّ الله البيع؟ فقال: ﴿وأَحلَّ الله البيع وحرَّم الرِّبا﴾ [البقرة: ٢٧٥] وقال: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلاّ أن تكونَ تجارةً عن تراضٍ منكم﴾ [النساء: ٢٩] فكيف يجوزُ أَن يكون أَهل هاتين الآيتين فُجَّاراً؟.

فكان جوابنا: أَنَّ ذلك عندنا ـ والله أعلم ـ إنَّما هو على المذمومين من التُّجارِ في تجاراتِهم، لا على المحمودين فيها، واللغةُ تُطْلِقُ مِثْلَ هذا في الذَّمِّ والحَمْدِ

جميعاً، ومن ذلك قولُ الله لنبيه: ﴿وإنَّه لذِكْرٌ لك ولقومِك وسوفَ تُسألون﴾ [الزخرف: ٤٤] وفي قومِهِ مَنْ لم يدخُل في هذه الآيةِ وهم الكُفَّارُ به منهم، الجاحِدون لما جاءَهم به.

باب

الكبـــائـــر

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقال جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وقالوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيئاً إِدّاً﴾ [مريم: ٨٨، ٨٩]، أَي: مُنكراً عَظِيماً، والإِدَدُ: الدَّواهي ٱلْعِظَامُ، واحِدَتُها إِدَّةٌ.

وقال الله سُبحانَهُ وتعالى: ﴿قُلْ تَعالَوْا أَتلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١، ١٥٢] الآيات...

وقال الله سُبحانَهُ وتَعالى: ﴿ولا تَقْتُلُوا أَولادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١، ٣٨] الآيات...

وقال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الإِثْمِ وٱلْفَواحِشَ إلاَّ اللَّمَمَ إنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ المَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢].

٣٨ ـ قال عَبدُ اللهِ بن مسعود: لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] اشتَدَّ ذلكَ على المسلمين، فَقُلْنا: أَيُّنا لا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟! فقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَمْ تَسْمعُوا الله يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾» [لقمان: ١٣].

أخرجه البخاري (٣٢) ومسلم (١٢٤).

وسمي الشرك ظلماً، لأن أصل الظلم: هو وضع الشيء في غير مَوْضِعِه، ومَن أَشركَ، فقد وَضعَ الرُّبُوبِيةَ في غير موضعها، وهو أعظم الظلم.

قال الحافظ في «الفتح» ١/ ١٢٤: «وفي المتن من الفوائد: الحَمْل على العموم حتى يَرِدَ دليل الخصوص، وأن النكرة في سياق النفي تَعُمُّ، وأَنَّ الخاصَّ يقضي على العام، والمبين على المجمل، وأن اللفظ يحمل على خلاف ظاهره لمصلحة دفع التعارض، وأن درجات الظلم تتفاوت، وأن المعاصي لا تسمى شركاً، وأن من لم يشرك بالله شيئاً فله الأمن وهو مهتد».

وقد جوَّد الإمام ٱبنُ القيم الحديث عن الشركِ في كتابه «الجواب الكافي» ص: ١٨٣ فما بعدها.

٣٩ ـ عن أبي هريرة، قال: قال رَسُول الله ﷺ: «قال الله عزَّ وَجَلَّ: كَذَّبَني عَبدي، ولم يَكُنْ ذلكَ لَهُ، وَشَتَمني عَبدي، ولم يَكُنْ ذلكَ لَهُ، أَمَّا تَكْذِيبُهُ إيَّايَ أنْ يَقُولَ: لَنْ يُعيدَنا كمَا بَدأنا، وأمَّا شَتْمُهُ إيَّايَ، أَنْ يَقُول: اتَّخَذَ الله وَلَداً، وأَنا ٱلصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوَاً أَحَدٌ».

أخرجه البخاري (٤٩٧٥)، والصَّمَدُ، الذي يُصَمدُ إليه في الحاجاتِ ليس فوقَهُ أحدٌ.

٤٠ ـ عن عبدالله بن مسعود، قال: قلت: يا رَسُول اللهِ أَيُّ الذَّنب أَعْظَمُ؟ قال: «أن تَجْعَلَ للهِ نِدّاً وهو خَلقكَ» قال: ثُمَّ أيٌّ؟ قال: «أن تَقتُلَ وَلَدَكَ خشيَةَ أنْ يَأْكُلَ معَك». قال: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «أنْ تُزانِيَ حَلِيلَةَ جارِكَ». فَأَنْزلَ تَصْدِيقُ قَول ٱلنَّبيِّ ﷺ: ﴿والذين لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلهاً آخرَ وَلا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلتي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحَقِّ وَلا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

أخرجه البخاري (٤٧٦١) ومسلم (٨٦).

٤١ ـ عن أبي بكرة، قال: قال رَسُول الله ﷺ: «ألا أُحَدِّثُكُمْ بِأَكْبَرِ ٱلْكبَائِرِ؟» قالوا: بَلى يا رَسُولَ الله، قال: «الإشراكُ بالله، وعُقُوقُ الوالدين» قال: وجَلسَ وكانَ مُتَّكِئاً قال: «وشَهَادةُ الزُّوْرِ، أو قَوْلُ الزُّوْرِ» قال: فَما زَالَ يَقولُها حَتَّى قُلْنا: لَيْتَهُ سَكتَ.

أخرجه البخاري (٢٦٥٤) ومسلم (٨٧) والترمذي (١٩٠٢).

قال الهَيْتَمي في «الزواجر» ٢ ـ ٣٢١: وشهادةُ الزورِ هي أن يشهد بما لا يتحقّقهُ.

وقال الإمام عز الدين بن عبدالسلام في «قواعد الأحكام» ١/ ٢٠: «وقد نصَّ الشرعُ على أنَّ شهادةَ الزورِ وأكْلَ مالِ اليتيمِ من الكبائرِ، فإنْ وَقَعا في مالٍ خطيرٍ فهذا ظاهرٌ، وإن وَقَعا في مالٍ حقيرٍ كزبيبةٍ وتمرةٍ فهذا مشْكلٌ، فيجوز أَنْ يُجْعَلَ من الكبائرِ فِطاماً عن هذه المفاسدِ. والحكمُ بغير الحقّ كبيرةٌ فإنَّ شاهد الزورِ مُتَسَبِّبٌ، والحاكم مباشِرٌ، فإذا جُعلَ السببُ كبيرةً فالمباشرةُ أكبر من تلك الكبيرة» انتهى.

٤٢ ـ عن عبدالله بن عَمْرو عن ٱلنَّبي ﷺ قال: «ٱلْكبائِرُ: الإشراكُ بالله، وعُقُوقُ الوالِدَين، وقَتْلُ النَّفْسِ، وٱلْيَمينُ ٱلْغَمُوسُ».

أخرجه البخاري (٦٦٧٥) والترمذي (٣٠٢٤) والنسائي ٧ ـ ٨٩.

اليمين الغموس: هي اليمين الكاذبة يقتطعُ الرجل بها مالَ غيره. سميت غموساً، لأنها تَغْمِسُ صاحبها في الإثم، ثم في النار.

وفي بعض الأحاديث: «اليَمِين الغَموسُ تَدَعُ الدِّيَارَ بَلاقِعَ» أخرجه البيهقي في «الكبرى» ١٠ ـ ٣٦ بنحوه، وهو حسنٌ بشواهدِهِ ومعناه: أنَّ الله سبحانَه يُفَرِّقُ شَملَ الحَالفِ، ويغير عليه ما أولاه من نِعَمه، وقيل: يفتقر ويذهب ما في بيته من المال.

٤٣ ـ عن أبي هريرة، عَن ٱلنَّبي ﷺ قال: «اجتَنِبُوا ٱلسَّبْعَ المُوبِقَاتِ» قالوا: يا رسولَ الله ومَا هُنَّ؟ قال: «ٱلشِّركُ باللهِ، وٱلسِّحرُ، وقَتْلُ ٱلنَّفْسِ ٱلتي حَرَّمَ اللهُ إلا بالحَقِّ، وأَكلُ مَالِ ٱلْيَتيمِ، وٱلتَّوَلِّي يَومَ الزَّحْفِ، وقَذْفُ المُحْصَناتِ المؤمناتِ الغَافِلاتِ».

أخرجه البخاري (٦٨٥٧) ومسلم (٨٩).

ويروى في الكبائر «الإلحاد بالبلد الحرام»، أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» ١/ ٥٢ والطبري في «التفسير» (٩١٨٧) موقوفاً على ٱبن عمر بإسنادٍ صحيح.

وقوله: «من المُوبِقَاتِ» أي: المُهلِكاتِ.

قال عبدالله بن مَسْعود: أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مَكْرِ اللهِ، والقنوطُ من رحمة الله، واليأسُ من رَوْح الله. وقال عَبِيْدَة: ما عُصِي اللهُ به، فهو كبيرة.

وقال طَاووس: قيل لابن عبّاسٍ: الكبائر سَبْعٌ؟ قال: إلى السبعين أقرب.

وقد ضبط ٱبن القيم هذا البابَ بقوله: «وكَشْفُ الغِطاءِ عن هذه المسألةِ أَن يُقالَ: إنَّ الله عزَّ وجلَّ أَرسَلَ رُسُلَهِ وأَنزل كُتُبَهُ وخَلَقَ السماواتِ والأَرضَ، ليُعرَفُ ويُعبَدَ ويُوحَّدَ ويكونَ الدينُ كُلّه له، والطاعةُ كلُّها له، والدعوةُ له، كما قال تعالى: ﴿وما خلقتُ الجن والإنسَ إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦]...، فأخبر سبحانه أَنَّ القَصْدَ بالخَلْقِ والأَمْرِ: أَن يُعرَفَ بأسمائه وصفاته وحده ولا يُشرك به وأَن يقومَ الناسُ بالقِسْطِ... ومِنْ أَعظم القِسْطِ التوحيدُ وهو رأسُ العدلِ وقِوامُه، وإِنَّ الشرك ظلمٌ كما قال تعالى: ﴿إنَّ الشرك لظلمٌ عظيم﴾ [لقمان: ١٣] فالشركُ أَظلمُ الظلم، والتوحيدُ أعدلُ العَدْلِ، فما كان أَشدَّ منافاةً لهذا المقصودِ فهو أَكبرُ الكبائر، وتَفاوتُها في درجاتِها بحسب منافاتِها له». انظر: «الجواب الكافي»: ١٨٣ ـ ١٨٤، و «قواعد الأَحكام» ١/ ٢٠.

٤٤ ـ عن أبي هُرَيرة: أَن رسول الله ﷺ قال: «لا يَزْنِي الزاني، وهو حينَ يَزْنِي مؤمنٌ، ولا يَسْرِقُ ٱلسَّارِقُ، وهو حينَ يَسْرِقُ مؤمنٌ، ولا يشرَبُ الخَمْرَ، وهو حينَ يَشْرَبُها مُؤمنٌ، ولا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذاتَ شَرَفٍ يَرفعُ المؤمنونَ إليهِ فيها أَبصَارَهُمْ، وهو حينَ يَنْتَهِبُها مُؤمنٌ».

أخرجه البخاري (٢٤٧٥) ومسلم (٥٧) (١٠٢).

النُّهْبَةُ: بضم النون: هو المال المنهوب، والمراد: المأخوذ جَهْراً قَهْراً، وقال الحافظ في «الفتح» ١٢ ـ ٥٠: «وأشار برفع البصر إلى حالة المنهوبين، فإنهم ينظرون إلى من ينهبهم ولا يقدرون على دَفْعهِ، ولو تضرعوا إليه. ويحتمل أن يكون كناية عن عدم التستر بذلك، فيكون صفة لازمة للنهب، بخلاف السرقة والاختلاس، فإنه يكون في خُفْيَةٍ، والانتهاب أشدُّ لما فيه من زيادة الجرأة وعدم المبالاة».

٤٥ ـ عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَسْرِقُ سَارِقٌ، وهو حينَ يَسْرِقُ مُؤمِنٌ، ولا يَزني زَانٍ، وهو حينَ يَزني مُؤمنٌ، ولا يَشْرَبُ الحُدودَ أَحَدُكُمْ ـ يعني: الخَمْرَ ـ وهو حينَ يشرَبُها مُؤمنٌ، والذي نَفْسُ مُحمَّدٍ بِيَدِهِ لا يَنْتَهِبُ أَحَدُكُمْ نُهْبَةً ذاتَ شَرَفٍ يَرفَعُ إليهِ المؤمنونَ أَعيُنَهُمْ فيها، وهو حينَ يَنْتَهِبُها مُؤمنٌ، ولا يَغُلُّ أَحَدُكُمْ حينَ يَغُلُّ وهو مُؤمنٌ، فإيَّاكُمْ».

أخرجه مسلم (٥٧) (١٠٣).

قال الشيخ رحمه الله: قد اختلف العلماء في تأويل هذا الحديث، فذهب قوم إلى أن المراد منه النهي، وإن ورد على صيغة الخبر، معناه: لا يزني الزاني ولا يسرق إذ هو مؤمن، ولا يليق مثل هذه الأفعال بأهل الإيمان.

وذهب قوم إلى أن معناه: الزّجرُ والوعيدُ دون حقيقة الخروج عن الإيمان، أو الإنذارُ والتحذيرُ بسوء العاقبة، أي: إذا اعتاد هذه الأمور لم يُؤمَن أن يقع في

ضد الإيمان وهو الكفر، كما قال ﷺ: «مَن يَرْتَعْ حَولَ الحِمَى يُوشِك أن يُواقعهُ». متفق عليه.

وقيل: معناه: نقصان الإيمان، يريد: لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن مُسْتَكمِلُ الإيمان، بل هو قبل أن يُقْدِمَ على الفجور، وبعدما نزع منه وتاب أكملُ إيماناً منه حالة اشتغاله بالفجور، وهو كقوله: «لا إيمانَ لمَن لا أمَانَة لَهُ» يريد: لا إيمان له كاملاً والله أعلم.

وقد ورد معنى آخر في تأويله أخرجه أبو داود (٤٦٩٠) بسندٍ صحيح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زَنى أحدُكم خرج منه الإيمان وكان عليه كالظُّلَّة، فإذا انقلع، رجع إليه الإيمان».

والذي دعاهم إلى الاختلاف في تأويله، وصرفه عن ظاهره إيجابُ الحدِّ في الزنى على أنحاء مختلفة في حق الحر المحصن، والحر البِكْرِ، وفي حق العبد، فلو كان المراد ـ بنفي الإيمان ثبوتَ الكفر، لاستووا في العقوبة، لأن المكلفين فيما يتعلق بالإيمان والكفر سواء، فلما كان الواجب فيه من العقوبة مختلفاً، دل على أن مرتكب ذلك ليس بكافر حقيقة.

قال البغوي: والقول ما قال الرسول ﷺ، والعلم عند الله عز وجل.

وروي عن عكرمة قال: قلت لابن عباس: كيف يُنزَع الإيمان منه؟ قال: هكذا وشبَّك بين أصابعه، ثم أخرجها، فإن تاب عاد إليه هكذا، وشَبَّك بين أصابعه.

باب

من مات لا يشرك بالله شيئاً

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وأما قوله عزَّ وجَلَّ: ﴿ومَنْ يَقْتُلْ مُؤمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خالداً فيها﴾ [النساء: ٩٣]، قيلَ: نَزَلَ هذا في رَجُلٍ قَتَلَ مُسلِماً ثُمَّ ارتَدَّ، وقيل: معناهُ: فَجزاؤه جَهنَّمُ إنْ جَازَاهُ ولم يَعْفُ عَنهُ، فَقَولهُ سُبْحَانَهُ وتَعالى: ﴿إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ ما دُونَ ذَلكَ﴾ خَبَرٌ لا يَقَعُ فيه خُلْفٌ، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فجَزاؤهُ جَهَنَّمُ﴾ وَعِيدٌ يُرْجَى فيهِ ٱلْعَفْوُ.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿والذينَ لا يَدْعُونَ معَ اللهِ إلهاً آخر، ولا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحَقِّ...﴾ إلى قوله: ﴿إلا مَنْ تابَ﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

٤٦ ـ عن معاذ بن جبل قال: كُنْتُ رَدِيفَ ٱلنَّبي ﷺ، فقال: «هَلْ تَدري يا مُعَاذُ ما حَقُّ اللهِ على ٱلنَّاسِ؟» قال: قُلْتُ: اللهُ ورسولُه أَعلَمُ، قال: «حَقُّهُ عَليهم أَنْ يَعْبُدوه ولا يُشْرِكُوا بِهِ شَيئاً».

«أَتدْرِي يا مُعَاذُ مَا حَقُّ ٱلنَّاسِ على الله إذا فعَلُوا ذلكَ؟» قال: قلتُ: اللهُ وَرَسُولُه أَعلمُ، قال: «فإنَّ حَقَّ ٱلنَّاسِ على الله أَنْ لا يُعَذِّبَهُمْ» قال: قلت: يا رسول الله ألاَ أُبَشِّرُ ٱلنَّاسَ؟ قالَ: «دَعْهُمْ يَعْمَلُونَ».

أخرجه البخاري (٢٨٥٦) ومسلم (٣٠) (٤٩).

٤٧ ـ عن أنس بن مالك: أنَّ ٱلنَّبي ﷺ ـ ومُعَاذٌ رَدِيفُهُ على الرَّحْلِ ـ قال: «يا مُعاذَ بنَ جَبل» قال: لَبَّيْكَ يا رَسُولَ اللهِ وسَعْدَيكَ ـ ثَلاثاً ـ، قال: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أنْ لا إله إلا الله، وأَنَّ مُحمَّداً رَسُولُ الله صِدْقاً منْ قَلْبِهِ إلاَّ حَرَّمَهُ اللهُ على ٱلنَّارِ». فقال: يا رسول الله أَفلا أُخْبِرُ بِهِ ٱلنَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا؟ قال: «إذاً يَتَّكِلُوا»، فأخبَرَ بها مُعاذٌ عندَ مَوتِهِ تَأَثُّماً.

أخرجه البخاريُّ (١٢٨) ومسلم (٣٠) وظاهره غير مراد، لأن الأدلة من الكتاب والسنة متضافرة على أن طائفة من عصاة المؤمنين يعذبون، ثم يخرجون من النار بالشفاعة، فتأوله العلماء فيمن قرن ذلك بالأعمال الصالحة، أو قالها تائباً ثم مات على ذلك، أو أن ذلك خرج مخرج الغالب، إذ الغالب أن الموحد يعمل الطاعة، ويجتنب المعصية، أو أن المراد بتحريمه على النار تحريم خلوده فيها. والقول بأن ذلك كان قبل نزول الفرائض فيه نظر. وأما التأثُّم فهو من قولهم: تأثَّم الرجلُ إذا فَعَلَ فِعْلاً يخرجُ به عن الإثم، قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ١/٣٠٦: والمراد بالإثم: الحاصل من كتمان العلم، ودل صنيع معاذ على أنه عرف أن النهي عن التبشير كان على التنزيه لا على التحريم، وإلا لما كان يخبر به أصلاً، أو عرف أن النهي مقيد بالاتكال، فأخبر به من لا يخشى عليه ذلك، والأول أوجه، لكونه أخر ذلك إلى وقت موته.

وفي الحديث: جواز الإرداف، وبيان تواضع النبي ﷺ، ومنزلة معاذ بن جبل من العلم، لأنه خصه بما ذكر.

وفيه: جواز استفسار الطالب عما يتردد فيه، واستئذانه في إشاعة ما يعلم به وحده.

واحتج به الإمامُ البخاريُّ على جواز أن يخص العالم بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا.

٤٨ ـ عن جابر قال: أَتى ٱلنَّبيَّ ﷺ رَجُلٌ، فقال: يا رسُولَ اللهِ مَا المُوجِبَتَانِ؟ قال: «مَنْ مَاتَ لا يُشْرِكُ باللهِ شَيئاً دَخَلَ الجنَّةَ، ومَنْ مَاتَ يُشْرِكُ باللهِ شيئاً دَخَل النَّارَ».

أخرجه مسلم (٩٣).

٤٩ ـ عن أبي ذَرٍّ قال: أَتَيتُ ٱلنَّبيَّ ﷺ وعليهِ ثَوْبٌ أَبيَضُ، وهو نائم، ثم أتيتُه وقد استيقظَ، فقال: «مَا مِنْ عَبْدٍ قال: لا إله إلا الله،

ثُمَّ ماتَ على ذلك إلا دَخَلَ الجَنَّةَ» قلتُ: وإنْ زَنَى، وإنْ سَرَقَ؟ قال: «وإنْ زَنَى، وإنْ سَرَقَ» قُلتُ: وإنْ زَنَى، وإنْ سَرَقَ؟ قال: «وإنْ زَنَى، وإنْ سَرَقَ» قُلْتُ: وإنْ زَنَى، وإنْ سَرَقَ؟ قال: «وإنْ زَنَى وإنْ سَرَقَ، على رَغمِ أنفِ أَبي ذَرٍّ» وكان أبو ذَرٍّ إذا حدَّثَ بهذا قال: وإنْ رَغِمَ أَنفُ أبي ذَرٍّ.

أخرجه البخاري (٥٨٢٧) ومسلم (٩٤).

قوله: «وإن رَغِم أنف أبي ذر» أي: ذل، وقيل: وإن كره، يقال: ما أرْغمُ من ذلك شيئاً، أي: أكرهه، وقيل: وإن اضطرب أبو ذر.

وقال الحافظ في «الفتح» ١١/ ٤٦١: «الحديثُ محمولٌ على مَنْ وحَّد ربَّه ومات على ذلك تائباً من الذنوبِ فإنَّه موعودٌ بدخولِ الجنة ابتداءً، وهذا في حقوق الله باتفاقِ أَهْلِ السنَّةِ، وأَمَّا حقوقُ العبادِ فيُشترطُ ردُّها عند الأَكثرِ، وقيل: بل هو كالأوَّلِ ويُثيبُ الله صاحبَ الحقِّ بما شاءَ».

٥٠ ـ عن أبي هريرة ـ أو عن أبي سعيد، شك الأعمش ـ قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَشْهَدُ أَنْ لا إله إلا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، مَنْ لَقِيَ اللهَ بِهِما غيرَ شَاكٍّ، لم يُحْجَبْ عن الجَنَّةِ».

أخرجه مسلم (٢٧) (٤٥) وقد ضَبَط الإمامُ النوويُّ هذا البابَ من العلم بقولِهِ: «اعلم أَنَّ مذهبَ أَهلِ السنَّةِ وما عليه أَهْلُ الحقِّ من السَّلَفِ والخَلَفِ: أَنَّ مَنْ مات موحِّداً دَخَلَ الجنَّةَ قَطْعاً على كُلِّ حالٍ، فإنْ كان سالماً من المعاصي كالصَغيرِ والمجنونِ الذي اتَّصل جُنونُه بالبلوغِ، والتائبِ توبةً صحيحةً من الشركِ أَو غيرِهِ من المعاصي إذا لم يُحدِثْ معصيةً بعد توبتِهِ، والموفَّقِ الذي لم يُبْتَلَ بمعصيةٍ أَصلاً فكُلُّ هذا الصنفِ يدخلونَ الجنَّةَ ولا يَدْخلون النارَ أَصلاً لكنَّهم يَردونها على الخِلافِ المعروفِ في الورودِ، والصحيحُ أَنَّ المرادَ به المرورُ على الصراطِ وهو منصوبٌ على ظهرِ جهنمَ أَعاذنا الله منها، وأَمَّا مَنْ كانت له معصيةٌ

كبيرةٌ وماتَ من غيرِ توبةٍ، فهو في مشيئة الله تعالى، فإن شاء عَفا عنه وأَدخله الجنة أَوّلاً، وإنْ شاءَ عَذَّبَهُ القَدْرَ الذي يُريده سبحانه وتعالى، ثم يدخله الجنَّةَ، فلا يُخَلَّدُ في النارِ أَحدٌ مات على التوحيد ولو عَمِل من المعاصي ما عمل، كما أَنَّه لا يدخُل الجنَّةَ أَحدٌ ماتَ على الكفرِ ولو عَمِل مِن أعمالِ البِرِّ ما عَمِل، وقد تظاهرت أَدِلَّةُ الكتابِ والسنَّةِ وإجماع مَنْ يُعتَدُّ به من الأُمَّةِ على هذه القاعدةِ، وتواترت بذلك نصوص تحصِّلُ العِلْمَ القَطْعيَّ، فإذا تقررت هذه القاعدةُ حُمِل عليها جميعُ ما ورد من أَحاديثِ البابِ، فإذا ورد حديثٌ في ظاهرِهِ مخالفَةٌ لها، وَجَبَ تأويلهُ عليها لِيُجْمَعَ بين نصوص الشرعِ».

٥١ ـ قال أبو ذَرٍّ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ ٱلنَّبي ﷺ في حَرَّةِ المدينةِ، فاسْتَقْبَلَنا أُحُدٌ، فقال: «يا أَبا ذَرّ» فَقُلتُ: لَبَّيْكَ يا رَسُولَ الله، قال: «مَا يَسُرُّني أَنَّ عندي مثلَ أُحُدٍ ذَهَباً، تَمضِي عليَّ ثَالثَةٌ وعِندي مِنْهُ دِينارٌ، إلا شَيءٌ أُرْصِدُهُ لدَيْنٍ، إلا أَنْ أَقولَ بهِ في عبادِ اللهِ هكذا وهكذا وهكذا» عَنْ يَمينِهِ، وَعَنْ شِمالِهِ، وَمِنْ خَلْفِهِ، ثمَّ مَشَى، ثمَّ قال: «إنَّ الأَكْثَرِينَ هُم الأَقَلُّونَ يَومَ الْقِيامَةِ إلا مَنْ قال هكذا وهكذا وهكذا» عَنْ يَمينِهِ، وَعَنْ شِمالِهِ، وَمِنْ خَلْفِهِ، «وَقَليلٌ مَا هُمْ».

ثُمَّ قالَ لي: «مكانَكَ لا تَبْرَحْ حَتَّى آتِيَكَ» ثُمَّ انطَلَقَ في سَوادِ لَيْلٍ حَتَّى تَوارَى، فَسَمِعْتُ صَوتاً قَد ارْتَفَعَ، فَتَخَوَّفْتُ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ عَرَضَ للنَّبيِّ ﷺ، فَأَرَدْتُ أَنْ آتِيَهُ فَذَكَرتُ قَولَه لي: لا تَبْرَحْ حَتَّى آتِيَكَ، فَلَمْ أَبْرَحْ حَتَّى أَتَاني، قُلْتُ: يا رَسُولَ الله لَقَدْ سَمِعْتُ صَوْتاً تَخَوَّفْتُ، فَذَكَرْتُ لهُ، فقال: «وهَلْ سَمِعْتَهُ؟» قُلْتُ: نعم، قال: «ذَاكَ جبريلُ أَتاني، فقال: مَنْ مَات منْ أُمَّتِكَ لا يُشْرِكُ باللهِ شَيْئاً دَخَلَ الجَنَّةَ، قُلْتُ: وإنْ زَنَى، وإنْ سَرَقَ؟ قال: وإنْ زَنَى، وإنْ سَرَقَ».

أخرجه البخاري (٦٤٤٤) ومسلم (٩٤).

الحرَّة: حجارةٌ سودٌ بين جَبَلين.

ونقل الحافظ في «الفتح» عن الإمام الطيبي قوله: «قال بعضُ المحقِّقين: قد يَتَّخِذُ من أَمثالِ هذه الأَحاديثِ المُبْطِلَةُ ذريعةً إلى طرح التكاليف وإبطال العملِ ظَنّاً أَنَّ تَرْكَ الشركِ كافٍ، وهذا يستلزمُ طيَّ الشريعةِ وإبطالَ الحدودِ، وأَنَّ الترغيبَ في الطاعةِ، والتحذيرَ من المعصيةِ لا تأثيرَ له، بل يقتضي الانخلاعَ من الدينِ والانحلالَ عن قَيْدِ الشريعةِ، وتركَ الناس سُدىً مهملين، وذلك يُفضي إلى خرابِ الدنيا بعد أَنْ يُفْضيَ إلى خرابِ الأخرى».

وفي الحديث: الحثُّ على الإنفاقِ في وجوهِ الخيرِ، وأَنَّ النبيَّ ﷺ كان في أَعلى درجاتِ الزهدِ في الدنيا.

٥٢ ـ عن عبادة بن الصامت، عَنِ ٱلنَّبي ﷺ قال: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إله إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وأَنَّ مُحمداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وأَنَّ عيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وكَلِمَتُهُ أَلقَاها إلى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، والجَنَّةَ والنَّارَ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ على مَا كانَ مِنَ ٱلْعَمَلِ» (أَي: أَيّ عَمَلٍ كانَ فيهِ مَعْصِيَةٌ أَو طَاعَةٌ).

أخرجه البخاري (٣٤٣٥) ومسلم (٢٨).

قوله: «وكلمته ألقاها إلى مريم» سُمِّي عيسى ﷺ كلمة، لأنه كان بالكلمة من غير أبٍ، وهي قوله سبحانه وتعالى: (كُنْ) قال الله عز وجل: ﴿إن مَثَلَ عيسى عند اللهِ كَمَثَلِ آدمَ خَلَقَه من ترابٍ ثم قال له كُنْ فيكونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

قيل في قوله سبحانه وتعالى في شأن يحيى بن زكريا: ﴿مُصدِّقاً بِكَلِمَةٍ من اللهِ﴾ [آل عمران: ٣٩] يعني بعيسى عليه السلام، وكان يحيى بن زكريا أول من آمن بعيسى وصدَّقه، وكانا ابني خالة.

وقوله: ﴿ورُوْحٌ مِنه﴾ [النساء: ١٧١]، أي: من خلقه وإحدائه من غير أبٍ، كما قال جلَّ ذِكْره: ﴿وَسخَّر لَكُمْ مَا في السَّمَواتِ ومَا في الأَرْضِ جميعاً منه﴾

[الجاثية: ١٣] سمي عيسى روحاً، لأنه حدث من نفخ الروح، وذلك أن الله سبحانه وتعالى أرسل إليها جبريل عليه السلام، فنفخ في جيب دِرعها، وكان مشقوقاً من قُدّامها، فوصل النفخ إليها فحملت.

وقيل في تفسير قوله عزّ وجل: ﴿فَنَفَخْنا فيهِ مِنْ رُوحنا﴾ [التحريم: ١٢١]، أي: من نفخ جبريل أضافه إلى نفسه، لأنه كان بأمره، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأرْسَلْنا إِلَيْهَا رُوحنا﴾ [مريم: ١٧١]، يعني جبريل. وقال الله عز وجل: ﴿وأيَّدْناهُ برُوح القُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]، يريد جبريل، وقيل في قوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ ، أي: رحمة، وكان عيسى رحمةً من الله على مَن آمن به.

ورُوي عن أُبيٍّ بن كعب في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ورُوحٌ مِنهُ﴾ [النساء: ١٧١]، أي: روح عيسى ﷺ كان من الأرواح التي أخذ الله عز وجل عليها الميثاق في عهد آدم ﷺ، ثم ردَّها إلى صُلب آدم، وأمسك عنده روحَ عيسى إلى أن أراد خلقه، فأرسله إلى مريم في صورة بشر، فهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيّاً فَحَمَلَتْهُ﴾ [مريم: ١٧]، أي: حملت الذي خاطبها وهو روح عيسى، فدخل من فيها، والله أعلم.

قال الإمام البغوي: اتفق أهل السنَّة على أن المؤمن لا يخرج عن الإيمان بارتكاب شيء من الكبائر إذا لم يعتقد إباحتها، وإذا عمِل شيئاً منها، فمات قبل التوبة، لا يُخَلَّد في النار، كما جاء به الحديث، بل هو إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه بقدر ذنوبه، ثم أدخله الجنة برحمته، كما ورد في حديث عبادة بن الصّامت في البَيعة.

واختلفوا في ترك الصلاة المفروضة عمداً، فكفّره بعضُهم، ولم يكفّره الآخرون.

والجمهورُ من السلف والخلف لا يقول بكُفرِ من ترك الصلاة تكاسلاً مع اعتقاده بوجوبها، وذهب جماعة إلى القول بكفره، وهو مروي عن علي رضي الله

عنه، وهو إحدى الروايتين عن أحمد بن حنبل، وبه يقول عبدالله بن المبارك، وإسحاق بن راهَوَيْه، وهو وجه لبعض أصحاب الشافعي.

ورُوي عن الزهريّ أنه سُئِلَ عن قول النبي ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله دخلَ الجنَّة» قال: إنما هذا قبل نزول الفرائض والأمر والنهي، وإلى مِثْلِ هذا ذَهَبَ أبو عبيد القاسم بنُ سلاَّم في كتابه «الإيمان» ص: ٦٠.

وذهب آخرون إلى أن معناه: أن أهل التوحيد سيدخلون الجنة وإن عُذِّبوا في النار بذنوبهم، فقد صحَّ عن ابن مسعود، وابن عباس، وأبي سعيد الخدري، وجابر، وأنَس عن النبي ﷺ: أنه سيخرج قوم من النار من أهل التوحيد ويدخلون الجنة.

وروي عن سعيد بن جُبير، وإبراهيم النَّخَعي، وغيرِ واحدٍ من التابعين في تفسير هذه الآية ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الذين كَفروا لَوْ كانوا مُسْلمينَ﴾ [الحجر: ٢] إذا أُخرج أهل التوحيد من النار، وأُدخلوا الجنة، وَدَّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين.

٥٣ ـ عن أبي هريرة قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «والذي نَفْسُ مُحمَّدٍ في يَدِهِ لا يَسْمَعُ بي أَحَدٌ من هذهِ الأُمَّةِ، ولا يَهوديٌّ، ولا نَصْرانيٌّ، ومَاتَ ولم يُؤمِنْ بالذي أُرْسِلْتُ بهِ إلا كانَ منْ أَصحَاب ٱلنَّارِ».

أخرجه مسلم (١٥٣).

قال الإمام النووي في «شرح صحيح مسلم» ١/ ٤٦٦: في الحديثِ: نَسْخُ المِلل كُلِّها برسالةِ نبينا ﷺ، وفي مفهومهِ دلالةٌ على أَنَّ مَنْ لم تَبْلُغْهُ دعوةُ الإِسلامِ فهو معذورٌ، وهذا جارٍ على ما تقرَّر في الأُصولِ: أَنَّه لا حُكْمَ قَبْلَ ورود الشرعِ على الصحيح، وإِنَّما ذكر اليهوديَّ والنصرانيَّ تَنْبيهاً على مَنْ سِواهما؛ وذلك لأَنَّ اليهودَ والنصارى لهم كتاب، فإِذا كان هذا شأنهم مع أنَّ لهم كِتاباً، فغيرهم ممَّن لا كتابَ له أَوْلى، والله أعلمُ.

٥٤ ـ عن أنس قال: كان غلامٌ يَهوديٌّ يَخْدُمُ ٱلنَّبيَّ ﷺ، فَمرِضَ فأَتَاهُ ٱلنَّبيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأسِهِ، فقالَ لهُ: «أَسْلِمْ» فَنَظَرَ إلى أَبيهِ وهو عِنْدَهُ، فقال: أَطِعْ أَبا ٱلْقاسِمِ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ ٱلنَّبيُّ وهو يَقُولُ: «الحَمْدُ للهِ الذي أَنْقَذَهُ مِنَ ٱلنَّارِ».

أخرجه البخاري (١٣٥٦) وأبو داود (٣٠٩٥)، وقال الحافظ في «الفتح» ٣/ ٥٨٦: وفي الحديث: جواز استخدام المشرك، وعيادته إذا مرض، وفيه حسن العهد، واستخدام الصغير، وعرض الإسلام على الصبي، ولولا صحته منه ما عرضه عليه، وفي قوله: «أنقذه بي من النار» دلالة على أنه صح إسلامه، وعلى أن الصبي إذا عقل الكفر ومات عليه أنه يعذب.

قلنا: في الفائدةِ الأَخيرةِ نَظَرٌ، إذ ليس في الحديثِ دلالةٌ صريحةٌ على أَنَّ الغُلامَ لم يبلغ، والجمهورُ على انتفاءِ التكليفِ قَبْل البلوغِ لقوله ﷺ: «رُفِع القَلَمُ عن ثلاثة» فذكر: «الغلام حتى يحتلم» أخرجه أحمد وغيره وصحَّحه ٱبن حبان (١٤٢) وانظر «درء تعارض العقل والنقل» ٩/ ٦٢.

ورُوي عن عَمْرو بن العاص قال: فلما جعل الله الإسلام في قلبي، أتيت النبيَّ ﷺ، فقلت: ابسُطْ يمينك لأبايِعَك، فبسط يمينَه، قال: فقبضتُ يدي، قال: «مالك يا عمرو؟» قلت: أردت أن أشترط، قال: «تشترط ماذا؟» قلت: أن يُغْفَرَ لي، قال: «أما عَلِمْتَ يا عمرو أن الإسلامَ يَهْدِم ما قبله، وأن الهجرة تَهدمُ ما قبلها، وأن الحج يهدم ما قبله؟».

أخرجه مسلم في «صحيحه» (١٢١٨).

وأخرجَ النسائي ٢/ ٢٠٥ بإسنادٍ صحيح عن حكيم بن حِزام قال: بايعتُ النبي ﷺ أن لا أخِرَّ إلا قائماً، يعني لا أموتَ إلاَّ ثابتاً على الإسلام، ومَن مات فقد خرَّ وسقط، والمراد من القيام: التمسك بالدين، قال الله سبحانه وتعالى:

﴿مِنْ أهلِ الكتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلونَ آياتِ الله﴾ [آل عمران: ١١٣] ومعناه: المواظبة على الدِّين والقيام به.

قلنا: وفي هذا الاستدلالِ نَظَرٌ، فقد استدَّل الإمامُ أحمد بهذا الحديثِ على صحَّةِ الإسلام على الشرطِ الفاسدِ، ثم يُلزمُ بشرائعِ الإسلام كُلِّها، وفَسَّر حديثَ حكيم بن حزام بأَنَّ معناه: أَن يسجُدَ من غير ركوعٍ، ذكره ٱبن رجب في «جامع العلوم والحكم» ١ ـ ٢٢٩ وهو أَحدُ الوجوه التي ذكرها الإمام الطحاوي في شرح هذا الحديث في «شرح مشكل الآثار» ١ ـ ١٩٥ ـ ١٩٨.

باب

العفو عن حديث النفس

قال اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا في أَنْفُسِكُمْ أَو تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قال ٱبن عُمَر: نَسَخَتْهَا الآيَةُ ٱلَّتي بَعدَها، يعني قَولَهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسَاً إلا وُسْعَها﴾ [البقرة: ٢٨٦] ومثلُهُ عن ٱبن عَبَّاسٍ وأَبي هُريرة.

وقال جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ومَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ في الدِّين مِنْ حَرَج﴾ [الحج: ٧٨]، أي: لم يُضَيِّقْ عَلَيْكُمْ في أَحكَامِهِ، فَيُكَلِّفَكُمْ مَا تَعْجِزونَ عنهُ.

٥٥ ـ عن أبي هريرة، عن ٱلنَّبي ﷺ قال: «إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وتَعالى تَجاوَزَ عَنْ أُمَّتي مَا وَسْوَسَتْ بِهِ أَنْفُسُها مَا لم تَتَكلَّمْ أَو تَعْمَلْ بِهِ».

أخرجه البخاري (٦٦٦٤) ومسلم (١٢٧) (٢٠٢) وفي الحديث: أَنَّ الوجودَ الذهني لا أثر له. وإِنَّما الاعتبارُ بالوجودِ القولي في القوليات، والعملي في العمليات.

٥٦ ـ عن عبدالله بن مسعود قال: سَأَلْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الرَّجل يَجِدُ ٱلشَّيءَ لَوْ خَرَّ مِنَ ٱلسَّماءِ، فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ، كان أَحَبَّ إِليهِ منْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، قال: «ذلكَ مَحْضُ ـ أَو صَرِيحُ ـ الإيمانِ».

أخرجه مسلم (١٣٣).

قال أبو سليمان الخطَّابيُّ: قوله ﷺ: «ذلك صريح الإيمان» معناه: أن صريح الإيمان هو الذي يمنعكم من قبول ما يلقيه الشيطان في أنفسكم، والتصديق به، وليس معناه أن الوسوسة نفسَها صريحُ الإيمان، وذلك أنها إنما تتولد من فعل الشيطان وتسويله، فكيف يكون إيماناً صريحاً.

وروي في حديث آخر أنهم لمّا شكوا إليه ذلك، قال: «الحمد لله الذي رَدَّ كَيْدَهُ إلى الوَسوسَة».

٥٧ ـ عن ابن عباس: أَنَّ ٱلنَّبي ﷺ جَاءَهُ رَجُلٌ، فقال: إني أُحَدِّثُ نَفْسِي بالشَيء، لأَنْ أَكُونَ حُمَمَةً أَحَبُّ إِليَّ منْ أَنْ أَتَكَلَّمَ بهِ. قال شُعْبَةُ: قال أَحدهما: «الحَمْدُ للهِ الذي رَدَّ أَمْرَهُ إلى الوَسْوَسَةِ» وقال الآخَرُ: «الحَمْدُ للهِ الذي لم يَقْدِرْ مِنْكُمْ إلا على الوَسْواسِ».

إسناده صحيح على شرط الشيخين، أخرجه أحمد ٤ ـ ١٠ (٢٠٩٧) وفيه تمامُ تخريجهِ.

«الحُمَمَةُ»: بضم الحاء وفتح الميمين: الفَحْمَةُ.

ومعنى الحديثِ: أَنَّ الله تعالى قد ردَّ كَيْدَ الشيطانِ إلى الوَسْوَسَةِ التي لا يُؤاخَذُ بها العَبْدُ.

باب
رد الـوسوســة

قال اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعالى: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ إلى آخرها. قَولُهُ عَزَّ وجَلَّ الخَنَّاسُ: هوَ الشَّيْطَانُ يُوَسْوِسُ في صَدْرِ المَرْءِ، فإذا ذَكَرَ الله خَنَسَ، أَي: انْقَبَضَ وتَأَخَّرَ.

وقال اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعالى: ﴿وإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ باللهِ﴾ [فصلت: ٣٦]، والنَّزْغ والهَمْزُ: الوَسْوَسَةُ، يقولُ: إِنْ نَالَكَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ أَدْنى وَسْوَسَةٍ، فَاسْتَعِذْ باللهِ. وَقِيلَ: يَنْزَغَنَّكَ، أَي: يَسْتَخِفَّنَّكَ.

وقوله سُبْحَانَهُ وتَعالى: ﴿نَزَغَ ٱلشَّيْطَانُ بَيْني وبَيْنَ إِخْوَتي﴾ [يوسف: ١٠٠]، أَي: أَفْسَدَ وأَغرى.

٥٨ ـ قال أبو هريرة: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يأْتي ٱلشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ، فَيَقُولُ: منْ خَلقَ كَذا؟ مَنْ خَلَقَ كَذا؟ حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذا بَلَغَهُ، فَلْيَسْتَعِذْ باللهِ وَلْيَنْتَهِ».

أخرجه البخاري (٣٢٧٦) ومسلم (١٣٤) (٢١٤). ونقل الحافظ في «الفتح» ٦/ ٤٩٤ عن الإمام الطيبي قال: «إنَّما أَمَرَ بالاستعاذةِ والاشتغالِ بأمرٍ آخَرَ، ولم يأمُر بالتأمُّلِ والاحتجاجِ، لأنَّ العِلْمَ باستغناءِ الله عن المُوجدِ أَمْرٌ ضروري لا يقبلُ المناظرةَ، ولأنَّ الاسترسالَ في الفِكْرِ في ذلك لا يزيدُ المَرْءَ إلاّ حَيْرةً، ومَنْ هذا حالُه فلا عِلاجَ له إلاّ الملجأُ إلى الله تعالى والاعتصامُ به».

٥٩ ـ عن أبي هريرة: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «يأْتي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ، فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ الأَرْضَ؟ فَيَقُولُ: اللهُ. فَيَقُولُ: مَن

خَلَقَ اللهَ؟ فَإذا أَحَسَّ أَحدُكُمْ بشيءٍ مِنْ ذلكَ، فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ باللهِ وَرُسُلِهِ».

أخرجه مسلم (١٣٤) (٢١٣).

وروي عن أبي زُمَيلٍ قال: سألت ابن عباس، فقلت: ما شيءٌ أُخفيه في صدري؟ قال: ما هو؟ قلت: والله لا أتكلم به، فقال: أشيء من شك؟ وضحك، قال: ما نجا من ذلك أحد حتى أنزل الله ﴿فإنْ كُنتَ في شَكٍّ ممّا أنزَلْنا إليْك﴾ [يونس: ٩٤] الآيةَ قال: فقال لي: إذا وجدت في نفسك شيئاً، فقل: ﴿هو الأوَّلُ والآخِرُ والظاهرُ والباطنُ وهو بكل شيء عليم﴾ [الحديد: ٣]. أخرجه أبو داود (٥١١٠) بسندٍ حسنٍ.

٦٠ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «نَحْنُ أَحَقُّ بالشَّكِّ من إبراهيمَ إِذْ قالَ: ﴿رَبِّ أرِني كَيْفَ تُحْيِ المَوْتَى، قال أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قال بَلَى ولكنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وَرَحِمَ اللهُ لُوطَاً، لقَدْ كان يَأوي إلى رُكْنٍ شَديدٍ، ولَوْ لَبِثْتُ في ٱلسِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لأَجَبْتُ الدَّاعِيَ».

أخرجه البخاري (٣٣٧٢) ومسلم (١٥١).

حُكي عن أبي إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني أنه قال: لم يشكَّ النبيُّ، ولا إبراهيم صلوات الله عليهما في أن الله قادر على أن يُحيي الموتى، وإنما شكَّا أن يجيبهما إلى ما سألاه، ومما يؤيد هذا الذي ذكره المُزَني ما روي عن ٱبن عباس في قوله عز وجل: ﴿رَبِّ أرِني كيفَ تُحْيِ الموتى، قال: أوَلم تُؤمِن، قال: بَلى، ولكن لِيطْمَئِنَّ قَلبي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، قال: أعلم أنك تجيبني إذا دعوتُك، وتعطيني إذا سألتُك.

أخرجه ٱبن جرير في التفسير (٥٩٨٦) بسندٍ ضعيفٍ.

قال أبو سليمان الخطّابي: ليس في قوله: «نحن أحقُّ بالشك من إبراهيم» اعتراف بالشك على نفسه، ولا على إبراهيم، لكن فيه نفي الشك عنهما، يقول: إذا لم أشك أنا ولم أُرْتَبْ في قدرة الله عز وجل على إحياء الموتى، فإبراهيم أولى بأن لا يشك ولا يرتاب، وقال ذلك على سبيل التواضع، والهضم من النفس. وفيه الإعلام أن المسألة من قبل إبراهيم لم تعرض من جهة الشك، لكن من قبل زيادة العلم، فإن العِيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيد الاستدلال، وقوله: ﴿ليطمئن قلبي﴾، أي: بيقين النظر.

وحكي عن سعيد بن جُبير أنه قال: ﴿ولكن ليطمئنَّ قلبي﴾ أي: بالخُلَّة، يقول: إني أعلم أنك اتخذتني خليلاً، ومثله عن ابن المبارك.

ويُحكى عن ابن المبارك أيضاً في قوله: ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾ أي: لِيرى من أدعوه إليك منزلتي ومكاني منك، فيجيبوني إلى طاعتك.

وقيل: لما نزلت الآية قال قوم: شك إبراهيم ولم يشك نبينا، فقال رسول الله ﷺ هذا القول تواضعاً منه، وتقديراً لإبراهيم.

وكذلك قوله في يوسف: «لو لبثتُ في السجن طولَ ما لبث يوسف لأجبت الداعيَ» وصف يوسُفَ بالأناة والصبر حيث لم يبادر إلى الخروج حين جاءه رسول الملك فِعْلَ المذنب يُعفى عنه مع طول لَبثه في السجن، بل قال: ﴿ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطّعن أيدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠] أراد أن يقيم عليهم الحجة في حبسهم إيَّاه ظلماً، وقال النبي ﷺ ذلك أيضاً على سبيل التواضع، لا أنه كان في الأمر منه مبادرةٌ وعجلةٌ لو كان مكان يوسف، والتواضع لا يصغِّر كبيراً، ولا يضع رفيعاً، ولا يبطل لذي حق حقاً، ولكنه يوجب لصاحبه فضلاً، ويكسبه جلالاً وقدراً.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فإنْ كُنتَ في شكٍّ ممّا أنزَلْنا إليك﴾ [يونس: ٩٤] الخطاب للنبي ﷺ، والمراد غيره ممن شك في تنزيل القرآن، كقوله سبحانه

وتعالى: ﴿يا أيُها النبيُ اتَّقِ الله﴾ [الأحزاب: ١] وقوله: ﴿واسئل مَنْ أرسَلنا مِنْ قبلك من رُسلنا﴾ [الزخرف: ٤٥] أي: سَلْ من أرسلنا إليه من قبلك رسلاً من رسلنا، يعني أهل الكتاب، الخطاب له، والمراد المشركون.

وقوله: «رحِمَ الله لوطاً لقدْ كان يأوي إلى رُكنٍ شديد» أراد به قوله لقومه: ﴿لوْ أنَّ لي بكم قوةً أو آوي إلى رُكنٍ شديد﴾ [هود: ٨٠] أي: لو كانت لي عشيرة لدفعوكم، ترحم عليه النبي ﷺ لسهوه في الوقت الذي ضاق صدره، واشتد جَزَعُه بما دَهَمَهُ من قومه حتى قال: أو آوي إلى ركن شديد، وقد كان يأوي إلى أشد الأركان من الله تعالى.

باب

الإسلام بدأ غريباً وسيعود كما بدأ

٦١ ـ عن عبدالله بن مسعود قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «إنَّ الإسلامَ بَدأَ غَرِيباً، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى للغُرَبَاءِ» قيلَ: وَمَنِ ٱلْغُرَبَاءُ؟ قال: «ٱلنُّزَّاعُ مِنَ ٱلْقَبَائِلِ».

أخرجه مسلم (١٤) دون قوله: «قيل: ومن الغرباء؟» وأخرجه الترمذي (٢٦٢٩) وقد استوعب طُرقَه الحافظ ابن رجب وشرحه في رسالته النفيسة «كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة».

قوله ﷺ: «طُوبى للغرباء» أراد المهاجرين الذين هجروا أوطانهم في الله عز وجل.

قوله ﷺ: «النُّزَّاع من القبائل» فالنُّزَّاع جمع نزيع، وهو الغريب الذي نَزَع عن أهله وعشيرته، والنزائع من الإبل: الغرائب.

٦٢ ـ عن أبي هريرة. أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «إنَّ الإيمانَ لَيَأْرِزُ إلى المَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الحَيَّةُ إلى جُحْرِهَا».

أخرجه البخاري (١٨٧٦) ومسلم (١٤٧).

قوله ﷺ: «يأرِز»، أي: ينضمُّ إليها، ويجتمع بعضه إلى بعض فيها، قيل: كان هذا زمانَ الردَّة بعد وفاة الرسول ﷺ في خلافة الصِّدّيق.

وقوله ﷺ: «إنَّ الإيمان لَيَأرِز» يعني: أهل الإيمان، كما قال في الحديث المتفق عليه: «أُحُدٌ جَبلٌ يُحبُّنا ونُحبُّه» يُريد: أهل المدينة، كما قال الله تعالى: ﴿وَاسئل القَريةَ التي كنّا فيها﴾ [يوسف: ٨٢]، أي: أهل القرية.

وروي عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف بن زيد بن مِلْحة، عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الدِّينَ لَيأرِز إلى الحِجاز كما تأرِزُ الحيّةُ إلى جُحْرِها، وَلَيَعقِلنَّ الدِّينُ من الحجاز مَعْقِلَ الأرْوِيّة من رأس الجبل، إن الدِّين بدأ غريباً ويَرجِعُ غريباً، فطوبى للغُرباء الذي يُصلِحون ما أفسدَ الناسُ من سُنَّتي من بَعدي». أخرجه الترمذي (٢٦٣٠) بإسنادٍ ضعيف.

والأرْوِية: شاء الوحش، وجمعها القليل: أراوِيُّ، والكثير: أَرْوَى.

قال الحافظُ ابن رجب في «كشف الكربة»: ١٨.

قوله: «بدأ الإسلامُ غريباً» يريدُ به: أَنَّ الناسَ كانوا قَبْلَ مَبْعَثِهِ صلواتُ الله عليه على ضَلالةٍ عامَّةٍ... فلما بُعِثَ النبيُّ ﷺ ودعا إلى الإسلام. لم يَسْتَجِبْ له في أَوَّلِ الأَمْرِ إلاّ الواحدُ بعد الواحدِ من كُلِّ قَبيلةٍ، وكان المُسْتَجيب له خائفاً من عشيرته وقبيلته، يُؤذى غايَةَ الأذى، ويُنالُ منه وهو صابرٌ على ذلك في الله عزَّ وجلَّ، وكان المسلمون إذْ ذاكَ مُسْتَضْعَفين يُشَرَّدون كُلَّ مُشَرَّدٍ، ويهربون بدينِهم إلى البلادِ النائيةِ كما هاجروا إلى الحبشةِ مرتين، ثم هاجروا إلى المدينةِ، وكان منهم مَنْ يُعَذَّبُ في الله ومنهم مَنْ يُقْتَلُ، فكان الداخلون في الإسلامِ حينئذٍ غُرباءَ.

وقال ابن القيم في «مدارج السالكين» ٣/١٨٨: حتى ظَهَرَ الإسلامُ، وانتشرت دعوتُه،...، فزالت تلك الغربةُ عنهم، ثم أَخَذَ في الاغترابِ والترحُّلِ حتى عاد غريباً كما بدأ، بل الإسلامُ الحقُّ ـ الذي كان عليه رسولُ الله ﷺ

وأصحابه ـ هو اليومَ أشدُّ غربةً منه في أوَّلِ ظهورهِ، وإنْ كانت أعلامُه ورسومُه الظاهرة مشهورةً معروفةً.

باب

الإيمان بالقدر

قالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعالى: ﴿وَكانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾ [الأحزاب: ٣٨].

وَقالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ [الفرقان: ٢].

وقالَ ٱلنَّبيُّ ﷺ: «وَتُؤمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». من حديثٍ أخرجه مسلم (٨).

٦٣ ـ عن علي بن أبي طالب قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لا يُؤمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤمِنَ بأَرْبَعٍ: يَشْهَدُ أَنْ لا إِله إِلا اللهُ، وأَني رَسُولُ اللهِ بَعَثني بالحَقِّ، وَيُؤمِنُ بالبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ، وَيُؤمِنُ بالقَدَرِ».

أخرجه الطيالسي ١/ ٢٢، والترمذي (٢١٤٦) وٱبن ماجه (٨١) بإسنادٍ صحيح.

وقوله: «لا يؤمن... الحديث»: هذا نَفْيٌ لأَصْلِ الإيمانِ لا نَفْيٌ لكماله، فمن لم يؤمن بواحدةٍ من هذه الأمور الأَربعة لم يكن مؤمناً، ويَلْزَمُ منه أَنْ يكونَ القَدَريُّ كافراً وهو خلافُ ما عليه الجمهور فَلْيُتَأَمَّل» أفاده السندي في حاشية ٱبن ماجه ١/ ٤٢ ـ ٤٣.

٦٤ ـ عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقول: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلاَئِقِ كُلِّها قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ ٱلسَّمَاواتِ والأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلفَ سَنَةٍ، قال: وَعَرْشُهُ على المَاءِ».

أخرجه مسلم (٢٦٥٣) والمراد: تحديدُ وَقتِ الكتابة في اللوحِ المحفوظ أو غيره. لا أصل الكتابة فإنَّ ذلك أزليٌّ لا أوَّل له.قاله النووي.

٦٥ ـ عن أبي هريرة قال: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «احْتَجَّ آدمُ وَمُوسى، فقالَ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنتَ أَبُونا وأَخرَجتَنا مِنَ الجَنَّة؟! فقالَ آدَمُ: يَا مُوسَى اصْطَفَاكَ الله بكَلامِهِ، وخَطَّ لَكَ ٱلتَّوْرَاةَ بِيَدِهِ، تَلُومُني على أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَليَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَني بأَربعينَ سَنةً؟! فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى».

أخرجه البخاري (٦٦١٤) ومسلم (٢٦٥٢).

٦٦ ـ عن أبي هريرة، قال: قال رَسُولُ الله: «تَحاجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فقال لَهُ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الذي أَغْوَيتَ ٱلنَّاسَ، وأَخْرَجتَهُمْ مِنَ الجَنَّةِ إلى الأَرْضِ؟! فقالَ لهُ آدَمُ: أَنتَ مُوسَى الذي أَعْطَاهُ اللهُ عِلْمَ كُلِّ شَيءٍ واصْطَفَاهُ على ٱلنَّاسِ بِرِسَالَتِهِ؟ قالَ: نَعمْ. قال: أَتَلُومُني على أَمْرٍ قَدْ قُدِّرَ عَلَيَّ أَنْ أَفْعَلَ مِنْ قَبلِ أَنْ أُخْلَقَ؟! فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى».

أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٦٨٥ ومسلم (٢٦٥٢).

قوله ﷺ: «فحجَّ آدم موسى» «آدمُ» مرفوعة الميم على معنى الفاعل، و«موسى» في محل النَّصب، أي: ألزمه آدمُ الحُجَّةَ.

قال الخطابي: إنما حَجَّه آدم في دفع اللوم، إذ ليس لأحد من الآدميين أن يلومَ أحداً،وقد جاء في الحديث: «انظروا إلى الناس كأنكم عبيدٌ ولا تنظروا إليهم كأنكم أربابٌ». ذكره مالك في «الموطأ» بلاغاً ٢/ ٧٥٢.

وأما حكم الذي تنازعاهُ، فهما فيه على السواء، لا يقدر أَحدٌ أن يُسقط الأصل الذي هو القدَرُ، ولا أن يُبطل الكسب الذي هو السَّبب، ومن فعلَ واحداً منهما، خرج عن المقصد إلى أحد الطرفين: إلى مذهب القَدَر أو الجبر.

وقوله: «أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه» يقول: إذا جعلك الله بالصفة التي أنت بها من الاصطفاء بالرسالة والكلام، فكيف يسعُكَ أن تلومَني على القدر المقدور الذي لا مَدْفعَ له، فقال ﷺ: «فحجَّ آدم موسى» وذلك أن الابتداء بالمسألة والاعتراض كان من موسى، ولم يكن من آدم إنكارٌ لما اقترفه من الذَّنب، إنما عارضه بأمر كان فيه دَفْعُ حجَّة موسى التي ألزَمه بها اللَّومَ.

وقال ابن عبدالبَرِّ في «التمهيد» ١٨ ـ ١٤: في هذا الحديثِ من الفِقْهِ: إثباتُ الحِجاجِ والمناظرةِ وإباحة ذلك إذا كان طلباً للحقِّ وظهورِه.

وفيه: إباحةُ التعريضِ في دَرْجِ الحِجاج، وأنَّ مَنْ عَلِمَ وطالَعَ العلومَ، فالحجَّةُ له ألزمُ، وتوبيخُه على الغفلةِ أعظمُ.

وفيه: الأصل الجَسيمُ الذي أجمع عليه أَهْلُ الحقِّ وهو أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد فَرَغ من أعمالِ العبادِ، فكُلٌّ يجري فيما قُدِّرَ له وسَبَق في عِلْمِ الله تبارك اسمُه.

وأما قولُه: «أفتلومني على أمرٍ قد قُدِّرَ علي»: فهذا عندي مخصوصٌ به آدم، وهذا غير جائزٍ أنْ يقولَه اليومَ أَحدٌ إذا ما أتى ما نهاه الله عنه، ويحتج بِمْثل هذا فيقول: أتلومني على أن قَتَلْتُ أو زَنَيْتُ، وذلك قد سَبَق في عِلْمِ الله وقَدَرَه عليَّ قَبْلَ أن أُخلق؟.

ومِثْلُه قولُ شيخ الإسلام في «درء تعارض العقل والنقل» ٨/ ٤١٩: فموسى أعلمُ من أن يلومَ تائباً، وموسى وآدمُ أعلمُ من أن يظُنَّا القَدَرَ حُجَّةً لأحدٍ في ذَنْبٍ، فإنَّ هذا لو كان حقّاً لكان حجَّةً لإبليس وفرعون، وكل كافر وفاسق.

٦٧ ـ عن أنس بن مالك، عن النَّبي ﷺ قال: «وَكَّلَ اللهُ بالرَّحِمِ مَلَكاً، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ نُطْفَةٌ، أيْ رَبِّ عَلَقَةٌ، أَي رَبِّ مُضْغَةٌ، فَإِذَا أَرادَ اللهُ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَها، قال: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنثَى؟ أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ فَمَا الرِّزْقُ؟ فَمَا الأَجَلُ؟ فَيُكْتَبُ كَذلِكَ في بَطْنِ أُمِّهِ».

أخرجه البخاري (٦٥٩٥) ومسلم (٢٦٤٦).

٦٨ ـ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: حَدَّثَنا رَسُولُ ﷺ وهو ٱلصَّادِقُ المَصْدوقُ: «إنَّ خَلْقَ أَحدِكُمْ يُجْمَعُ في بَطْنِ أُمِّهِ أَربعينَ يوماً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مثلَ ذلكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مثلَ ذلك، ثُمَّ يَبْعَثُ الله إليه المَلَكَ، أو قالَ: يُبْعَثُ إِلَيْهِ المَلَكُ بأَرْبَعِ كَلماتٍ، فَيَكْتُبُ رِزْقَهُ، وَعَمَلَهُ، وأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ، أو سَعِيدٌ».

قالَ: «وإنَّ أحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَملِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يكُونُ بَيْنَهُ وبينها غَيرُ ذِراعٍ، فَيَسْبِقُ عَلَيهِ ٱلْكِتابُ، فَيَعْملُ بِعَملِ أهلِ ٱلنَّارِ، فَيَدْخُلُها، وإنَّ أَحَدَكم يَعْملُ بعَمَلِ أهْلِ ٱلنَّارِ حَتَّى مَا يَكُون بَينهُ وَبَينَهَا غَيْرُ ذِراعٍ، فَيَسْبِقُ عَلَيهِ ٱلْكِتابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أهلِ الجَنَّةِ، فَيَدْخُلُها».

أخرجه البخاري (٦٥٩٤) ومسلم (٢٦٤٣).

وفي الحديث: أنَّ الأعمال حَسَنَها وسيئها أمارات، وليست بموجبات، وأن مصير الأمور في العاقبة إلى ما سبق به القضاء، وجرى به القدر في الابتداء، وفيه القسم على الخبر الصدق تأكيداً في نفس السامع.

وفيه التنبيه على صدق البعث بعد الموت، لأن من قدر على خلق الشخص من ماء مهين، ثم نقله إلى العلقة، ثم إلى المضغة، ثم ينفخ فيه الروح، قادر على نفخ الروح بعد أن يصير تراباً، ويجمع أجزاءه بعد أن يفرقها. ولقد كان قادراً على أن يخلقه دفعةً واحدةً، ولكن اقتضت الحكمة بنقله في الأطوار رفقاً بالأم، لأنها لم تكن معتادة، فكانت المشقة تعظم عليها، فهيأه في بطنها بالتدريج إلى أن تكامل، وإذا تأمل الإنسان في أصل خلقه من نطفة، وتنقله في تلك الأطوار إلى أن صار إنساناً جميل الصورة، مفضلاً بالعقل والفهم والنطق كان حقاً عليه أن يشكر من أنشأه وهَيَّأه، ويعبده حق عبادته، ويطيعه ولا يعصيه.

وفيه الحث على الاستعاذة من سوء الخاتمة، وقد عمل به جمع جَمٌّ من السلف وأئمة الخلف. وفيه أن الله يعلم الجزئيات كما يعلم الكليات لتصريح الخبر بأنه يأمر بكتابة أحوال الشخص مفصلة، وفيه أنه سبحانه مريد لجميع الكائنات بمعنى أنه خالقها ومُقَدِّرُها لا أنه يحبها ويرضاها.

وفيه أن الأقدار غالبة، والعاقبة غائبة، فلا ينبغي لأحد أن يغترّ بظاهر الحال، ومن ثم شرع الدعاء بالثبات على الدين وبحسن الخاتمة. وانظر «جامع العلوم والحكم» ١/ ١٥٣.

ويُروى عن عمار بن رُزَيق أنه قال للأعمش: ما يجمع في بطن أمه؟ قال: حدثني خيثمة، قال: قال عبدالله: إن النطفة إذا وقعت في الرَّحِم، وأراد الله أن يخلقَ منها بشراً، طارت في بشر المرأة تحت كل ظُفرٍ وشعرةٍ، ثم تمكث أربعين ليلة، ثم تنزل دماً في الرحم فذلك جمعُها.

وقيل لأبي العالية في قوله سبحانه وتعالى: ﴿والذين يُتَوَفَّوْنَ منكمْ﴾ [البقرة: ٢٣٤] الآيةَ: لأي شيء ضُمت هذه العشرة إلى الأربعة الأشهر؟ قال: لأنه ينفخ فيه الروح في العشر.

٦٩ ـ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: خَرَجْنَا على جِنَازَة، فَبَيْنَا نَحْنُ بالبَقِيع، إذْ خَرَجَ عَلَينا رَسُولُ الله ﷺ وَبِيَدِهِ مِخْصَرةٌ، فَجاءَ فَجَلَسَ، ثُمَّ نَكَتَ بها في الأرض ساعةً، ثُمَّ قالَ: «ما مِنْ نَفْس مَنْفُوسَةٍ إلاَّ قَدْ كُتِبَ مكانُها مِن الجَنَّةِ أو النَّارِ، وإلاَّ قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أو سَعِيدَةً» قال: فقال رَجُلٌ: أفلا نَتَّكِلُ على كِتَابِنَا يا رَسُولَ الله، ونَدَعُ ٱلْعَمَلَ؟ قال: «لا، ولكِن اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ، أَمَّا أَهْلُ ٱلشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهلِ ٱلشَّقَاءِ، وأَمَّا أَهْلُ ٱلسَّعادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ ٱلسَّعادَةِ» قال: ثُمَّ تلا هذهِ الآية: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى واتَّقَى. وصَدَّقَ بالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى. وأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وكَذَّبَ بالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلعُسْرَى﴾ [الليل: ٥، ١٠].

أخرجه البخاري (٣٦٢) ومسلم (٢٦٤٧).

قال أبو عُبَيْد في «غريب الحديث» ١/ ١٨٥: المِخْصَرَة: ما اختصر الإنسان بيده، فأمسكه من عصاً أو عَنَزَةَ، ومنه أن يمسك الرجل بيد صاحبه، فيقال: فلان مخاصِرُ فلانٍ. قال الفراء: يقال: خرج القوم متخاصرين: إذا كان بعضهم آخذاً بيد بعض.

قال القُتيبي: التخصر: إمساك القضيب باليد، والمخصرة ذلك القضيب، وجمعها مخاصر.

قوله: «نكتَ بها في الأرْضِ»، أي: ضربها بها.

وقوله ﷺ: «ما مِن نفسٍ منفوسَةٍ» أي: مولودة، يقال: نُفِسَتِ المرأة ونَفِسَتْ: إذا ولدت، فإذا حاضت، قلت: نَفِسَتْ بفتح النون لا غير.

قوله: «مُيَسَّرٌ» أي: مهيَّأ ومصروف إليه.

وذكر الخطابي على هذا الحديث كلاماً معناه: قال: قولهم: «أفلا نتّكِلُ على كتابنا ونَدَعُ العملَ؟» مطالبة منهم بأمرٍ يوجب تعطيل العبودية، وذلك أن إخبار النبي ﷺ عن سابق الكتاب إخبار عن غيب علم الله سبحانه وتعالى فيهم، وهو حُجَّةٌ عليهم، فرام القوم أن يتخذوه حجة لأنفسهم في ترك العمل، فأعلمهم النبي ﷺ أن هاهنا أمرين لا يُبْطِلُ أحدُهما الآخر: باطن هو العلة الموجبة في حكم الربوبية، وظاهر هو السمة اللازمة في حق العبودية، وهو أمارة مُخيلة غيرُ مُفيدة حقيقة العلم، ويشبه أن يكونَ ـ والله أعلمُ ـ إنما عوملوا بهذه المعاملة، وتُعبِّدوا بهذا التعبد، ليتعلق خوفُهم بالباطن المُغَيَّبِ عنهم، ورجاؤهم بالظاهر البادي لهم، والخوفُ والرجاء مَدْرجتا العبودية، ليستكملوا بذلك صفة الإيمان، وبين لهم أن كُلاً مُيَسَّرٌ لما خلق له، وأن عمله في العاجل دليل مصيره في الآجل، وتلا قوله سبحانه وتعالى: ﴿فأمّا مَنْ أعطَى واتقَّى... وأما من بَخِل

واستغنى﴾ وهذه الأمور في حكم الظاهر، ومِنْ وراءِ ذلك علم الله عز وجل فيهم، وهو الحكيم الخبير لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

واطلب نظيره من أمرين: مِن الرزق المقسوم مع الأمر بالكسب، ومن الأجلِ المضروب في العمر مع المعالجة بالطب، فإنك تجدُ المغيَّب فيهما علة موجبة، والظاهر البادي سبباً مُخيلاً، وقد اصطلح الناس خواصُّهم وعوامُّهم على أن الظاهر فيهما لا يُترك بالباطن. هذا معنى كلام الخطابي رحمه الله تعالى.

٧٠ ـ عن عبدالله بن عمر قال: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «كُلُّ شَيء بِقَدَرٍ حَتَّى ٱلْعَجْزُ وٱلْكَيْسُ، أو الكَيْسُ وٱلْعَجْزُ».

أخرجه مالك ٢/٦٨٦، ومسلم (٢٦٥٥).

الكيس: ضد العجز، وهو النشاط والحِذْقُ بالأمور، والعجز يحتمل أنه على ظاهره، وهو عدم القدرة، وقيل: هو ترك ما يجب فِعْلُه، والتسويف فيه حتى يخرج وقته، ويحتمل أن يريد به عمل الطاعات، ويحتمل أمر الدنيا والآخرة.

٧١ ـ عن جابر بن عبدالله قال: جاءَ سُرَاقَةُ بنُ مَالِكِ بنِ جُعْشُم رضي الله عَنْهُ، فقالَ: يَا رَسُولَ الله بَيِّنْ لَنَا دِينَنَا كَأَنَّا خُلِقْنا الآنَ، أَرأَيتَ عُمْرتَنَا هذهِ، ألعَامِنَا هذهِ، أَمْ لِلأَبَدِ؟ قال: «بل للأَبَدِ».

قال: يا رَسُولَ الله بَيِّنْ لَنا دِينَنَا كَأَنَّا خُلِقْنا الآن، فِيمَ ٱلْعَمَلُ ٱلْيَومَ؟ فِيما جَفَّتْ بِهِ الأَقْلامُ، وجَرَتْ بِهِ المقادِيرُ، أوْ فِيمَا يُسْتَقْبلُ؟ قَالَ: «بَلْ فِيمَا جَفَّت بِهِ الأَقْلامُ، وجَرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ» قال: فَفِيمَ ٱلْعَمَلُ؟.

قال زُهَيرٌ: فقالَ كَلِمَةً خَفِيَتْ عَلَيَّ، فَسألتُ عَنها نَسِيبي بَعْدُ، فَذَكَرَ أَنَّهُ سَمِعَها، فقال: «اعْمَلُوا فَإِنَّ كُلاً مُيَسَّرٌ».

أخرجه مسلم (٢٦٤٨).

قال النووي: قوله: «جفَّت به الأَقلامُ» أي: مضت به المقاديرُ، وسبق عِلْمُ الله تعالى به وتمَّت كتابتُه في اللوح المحفوظِ وجَفَّ القلمُ الذي كُتِبَ به، وامتنعت فيه الزيادةُ والنقصان. قال العلماءُ: وكتابُ اللهِ تعالى ولوْحُه وقَلَمُهُ والصحفُ المذكورةُ في الأحاديثِ كلُّ ذلك ممَّا يجبُ الإيمانُ به، وأما كيفية ذلك وصفتُه فعلمها إلى الله تعالى ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء سبحانه.

٧٢ ـ عن ابن عباس رضي الله عنه قال: مَا رأَيتُ شَيئاً أَشْبَهَ باللَّمَم مِمَّا قالَ أبو هُريرةَ عَن ٱلنَّبي ﷺ: «إنَّ الله كَتَبَ على ابنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَى أَدْرَكَ ذَلِكَ لا مَحَالَةَ، فَزِنَى ٱلْعَيْنِ ٱلنَّظَرُ، وَزِنَى اللِّسانِ المَنْطِقُ، وٱلنَّفْسُ تَمنَّى وتَشْتَهِي، وٱلْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذلِكَ وَيُكَذِّبُهُ».

أخرجه البخاري (٦٢٤٣) ومسلم (٢٦٥٧).

قال الخطابي: المراد باللمم ما ذكره الله في قوله تعالى: ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم﴾ [النجم: ٣٢] وهو المعفو عنه، وفي الآية الأخرى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتِكُم﴾ [النساء: ٣١] فيؤخذ من الآيتين أن اللمم من الصغائر، وأنه يكفر باجتناب الكبائر. وقال ابن بَطَّال في شرح البخاري ٩/ ٢٣: تفضل الله على عباده بغفران اللمم إذا لم يكن للفرج تصديق بها، فإذا صدَّقها الفرج كان ذلك كبيرة، ونقل الفراء أن بعضهم زعم أن «إلا» في قوله تعالى: ﴿إلا اللمم﴾ بمعنى الواو، وأنكره وقال: إلا صغار الذنوب، فإنها تُكَفَّرُ باجتناب كبارها، وإنما أطلق عليها زنى، لأنها من دواعيه، فهو من إطلاق اسم المسبب على السبب مجازاً.

٧٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «ٱلْعَيْنانِ تَزْنِيانِ، واللِّسَانُ يَزْني، وٱلْيَدانِ تَزْنِيانِ، والرِّجْلاَنِ تَزْنِيانِ، يُحَقِّقُ ذلِكَ ٱلْفَرْجُ أو يُكَذِّبُهُ».

هذا حديث صحيح. أخرجه أحمد (٩٣٣١)، والطحاوي في «مشكل الآثار» ٧/ ١٤٠ (٢٧١٤) وصحَّحه ابن حبان (٤٤١٩).

٧٤ ـ عن مُسلِم بن يَسَارٍ الجُهَنيّ: أنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ سُئِلَ عَنْ هذهِ الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلَى شَهِدْنَا أنْ تَقُولُوا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إنَّا كُنَّا عَنْ هذَا غَافِلِين﴾ [الأعراف: ١٧٣].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يُسْأَلُ عَنها، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ، فاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فقالَ: خَلَقْتُ هؤلاءِ لِلْجَنَّةِ، وبِعَمَلِ أَهلِ الجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فقال: خَلَقْتُ هؤلاءِ لِلنَّارِ، وَ بِعَمَلِ أَهْلِ ٱلنَّارِ يَعْمَلُونَ».

فقال رَجُلٌ: فَفِيمَ ٱلْعَمَلُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ الله إذا خَلَقَ ٱلْعَبْدَ لِلجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهلِ الجَنَّةِ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيُدْخِلَهُ بِهِ الجَنَّةَ، وإذَا خَلَقَ ٱلْعَبْدَ لِلنَّارِ، اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى يَمُوتَ على عَمَلٍ مِنْ أعمالِ أَهْلِ ٱلنَّارِ، فَيُدْخِلَهُ بِهِ ٱلنَّارَ».

هذا حديث صحيحٌ أخرجه مالك في «الموطأ» ٢/ ٦٨٥ وأحمد (٣١١) وفيه تمامُ الاحتجاج لصحَّتِهِ.

الذُّرِّيةُ: جمعها ذراري من الذَّرِّ، لأن الله سبحانه وتعالى أخرج الخلق من صُلب آدمَ كالذَّرِّ حتى أشهدهم على أنفسهم.

وقيل: هو من ذَرَأ اللهُ الخلْقَ، أي: خَلَقهم، فتُرِك هَمزُه.

قال الإمام ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» ٣/ ٥٠٦.

قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد عليهم إنما هو فَطْرُهُم على التوحيد كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سريع، وقد فسر الحسن الآية بذلك، قالوا: ولهذا قال: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم﴾ ولم يقل: من آدم ﴿من ظهورهم﴾ ولم يقل: من ظهره ﴿ذرياتهم﴾ أي: جعل نسلهم جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، كما قال الله تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ وقال: ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ وقال: ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾ثم قال وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾ أي: أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالاً وقالاً، والشهادة تارة تكون بالقول، كقوله: ﴿قالوا شهدنا على أنفسنا﴾، وتارة تكون حالاً، كما قال الله تعالى: ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾، أي: حالهم شاهد عليهم بذلك، لا أنهم قائلون ذلك، وكما قال تعالى: ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ كما أن السؤال تارة يكون بالمقال، وتارة يكون بالحال، كما في قوله: ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا هذا: أن جعل هذا الإشهاد حُجَّةً عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قاله، لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه. فإن قيل: إخبار الرسول ﷺ به كاف في وجوده؟ فالجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءت به الرسل من هذا وغيره، وهذا جُعِلَ حُجَّةً مستقلة عليهم، فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد، ولهذا قال: ﴿أن تقولوا﴾، أي: لئلا تقولوا يوم القيامة: ﴿إنا كنا عن هذا﴾، أي: التوحيد ﴿غافلين. أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا...﴾ الآية.

٧٥ ـ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤمنينَ رَضِيَ الله عَنْهَا قَالَتْ: أَدْرَكَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ جِنَازَةَ صَبيٍّ مِنْ صِبيانِ الأَنْصَارِ، فقالتْ عائشةُ: طُوبَى لَهُ، عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الجَنَّةِ! فقال رَسُولُ الله ﷺ: «وَمَا يُدْرِيكِ؟! إِنَّ الله خَلَقَ

الجَنَّةَ، وخَلَقَ لَها أَهْلاً وهُمْ في أصْلابِ آبائِهِم، وخَلَقَ ٱلنَّارَ، وخَلَقَ لَها أَهْلاً وَهُمْ في أصْلابِ آبائِهِمْ».

أخرجه مسلم (٢٦٦٢).

قال النووي رحمه الله: أجمع من يُعْتَدُّ به من علماء المسلمين على أن من مات من أطفال المسلمين، فهو من أهل الجنة، وتوقف فيه بعضهم لهذا الحديث، والجواب عنه أنه لعله نهاها عن المسارعة إلى القطع من غير دليل أو قال ذلك قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة.

وقال ابن القيم في «طريق الهجرتين»: ٦٨٥: وأما أطفال المسلمين فلا يختلف فيهم أحد، يعني أنهم في الجنة. نقله عن الإمام أحمد.

وحكى ابن عبدالبر عن جماعة أنهم توقفوا فيهم، وأن جميع الوِلْدان تحت المشيئة. قال: وذهب إلى هذا القول جماعة كثيرة من أهل الفقه والحديث، منهم حماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، وإسحاق بن راهَوَيْه، قالوا: وهو شِبْهُ ما رسم مالك في «الموطأ» في أبواب القدر، وما أورده من الأحاديث في ذلك، وعلى ذلك أكثر أصحابه، وليس عن مالك فيه شيء منصوص، إلا أن المتأخرين من أصحابه ذهبوا إلى أن أطفال المسلمين في الجنة، وأطفال المشركين خاصة في المشيئة.

قال الشيخ رحمه الله: الإيمان بالقَدَر فرضٌ لازمٌ، وهو أن يُعتقد أن الله تعالى خالقُ أعمال العباد، خيرِها وشرِّها، كتبها عليهم في اللوح المحفوظ قبل أن خَلَقَهم، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿والله خلقكم وما تَعملون﴾ [الصافات: ٩٦]، وقال اللهُ عَزَّ وجل: ﴿قُلِ اللهُ خالِقُ كلِّ شيءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال الله عزّ وجل: ﴿إنَّا كلَّ شيءٍ خلقناهُ بقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] فالإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، كلُّها بقضاء الله وقدره، وإرادته ومشيئته، غير أنه يرضى الإيمان والطاعة، ووَعد عليهما الثوابَ، ولا يرضى الكفر والمعصية، وأوعد عليهما

العقاب، قال سبحانه وتعالى: ﴿ويُضِلُّ اللهُ الظالِمينَ ويفعلُ اللهُ ما يَشاء﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلوْ شاءَ اللهُ ما اقْتَتَلوا ولكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُريدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وقال تعالى: ﴿ومن يُهِنِ اللهُ فما لَهُ من مُكرِمٍ إنَّ اللهَ يَفْعلُ ما يشاءُ﴾ [الحج: ١٨] وقال عزّ وجل: ومَن يُرِدْ أنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾ [الأنعام: ١٢٥].

قال ابن عباس: الحرَج: موضع الشجر الملتف لا تصل الراعية إليه، فقلب الكافر لا تصل إليه الحكمة، وكلُّ ضَيِّقٍ حَرَجٌ وحَرِجٌ.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿خَتمَ اللهُ على قُلوبِهِم﴾ [البقرة: ٧] أي طَبَعَ عليها، فلا تَعقِلُ ولا تعِي خيراً، ومعنى الختم: التغطيةُ على الشيء، والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء. وقال جلّ ذكره: ﴿وإذا قرأتَ القرآن جعلنا بينكَ وبينَ الذين لا يُؤمِنونَ بالآخِرَةِ حجاباً مستوراً﴾ [الإسراء: ٤٥]، قيل: المستور هاهنا بمعنى السّاتِر. والحجاب: الطبْع. وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ولا يَرضى لِعبادِهِ الكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧].

قال رحمه الله: فالعبدُ له كسْبٌ، وكسبُه مخلوق يخلقه الله حالة ما يَكْسِب، والقدر سرٌّ من أسرار الله لم يُطْلِعْ عليه ملَكاً مُقَرَّباً، ولا نبياً مرسلاً، لا يجوز الخوضُ فيه، والبحث عنه بطريق العقل، بل يعتقد أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق، فجعلهم فريقين: أهلَ يمين خلقهم للنعيم فضلاً، وأهلَ شِمالٍ خلقَهُم للجحيم عدلاً.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ولقد ذَرَأنا لِجهَنَّمَ كثيراً من الجِنِّ والإنْسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿أولئك يَنالُهُمْ نَصيبُهُم مِن الكتاب﴾ [الأعراف: ٣٧]. قال سعيد بن جُبَيْر: ما قُدِّرَ لهم من الخير والشر، ومن الشَّقوةِ والسعادة، وقال الله تعالى: ﴿ما أنتُمْ عليه بفاتنين قال مجاهد: بمُضلِّين إلا مَن هو صالِ الجحيم﴾ [الصافات: ١٦٢، ١٦٣] إلا من كتب الله أنه يَصْلى الجحيم، وقال الله تعالى: ﴿كما بدَأكُم تعودون﴾ [الأعراف: ٢٩] قال

سعيد بن جُبير: كما كُتِبَ عليكم تكونون فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضَّلالة﴾ [الأعراف: ٣٠]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿إنَّا هدَيناهُ السَّبيلَ إمَّا شاكراً وإما كَفوراً﴾ [الإنسان: ٣] وقيل في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وهدَيناه النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] أي: طريق الخير، وطريق الشر.

وقال عمر بن عبدالعزيز: لو أراد الله أن لا يُعصى لم يَخلُق إبليس ويُروى هذا مرفوعاً.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ولو شئنا لآتَينا كلَّ نفْسٍ هُدَاها وَلكِنْ حقَّ القولُ منِّي لأمْلأنَّ جَهَنَّمَ من الجِنَّةِ والنَّاسِ أجمعين﴾ [السجدة: ١٣].

فنسأل الله التوفيق لطيْبِ المكتَسب، ونعوذ به من سوء المنقلَب بفضله.

قال طاووس اليمانيُّ: اجتنبوا الكلام في القدَرِ، فإن المتكلِّمين فيه يقولون بغير علم.

قال سفيان الثَّوري: ما أحبَّ اللهُ عبداً فأبغضه، وما أبغضه فأحبَّه، وإن الرجل لَيعبُدُ الأوثانَ وهو عند الله سعيدٌ.

باب

الأمور بمشيئة الله سبحانه وتعالى

قال الله سُبْحَانَهُ وتَعالى: ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشَاء اللهُ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ومَا تَشَآؤُنَ إلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

وقال اللهُ تَعالى: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيءٍ إني فَاعِلٌ ذلِكَ غَدَاً إلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ [الكهف: ٢٤].

حُكي عَنْ بَعضِ ٱلسَّلَفِ قال: إذا نَسِيَ الإنسَانُ أَنْ يَقُولَ: «إنْ شَاءَ اللهُ» فَتَوْبَتُهُ: ﴿عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً﴾ [الكهف: ٢٤].

وقوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٨]، أَي: تَسْتَثْنُونَ، كما قال في أول الآية: ﴿ولا يَسْتَثْنُونَ﴾ سُمِّيَ الاستثناء تَسبيحاً، لأَنَّ ٱلتَّسْبِيحَ تَعظيمُ اللهِ تعالى وتَنزيهُهُ، وفي الاستثناء تَعظيمُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، والإقرارُ بأَنهُ لا يشاء أَحَدٌ شَيئاً إلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعالى.

٧٦ ـ عن أبي هريرة: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قال سُليمانُ ﷺ: لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ على تِسْعِينَ امْرأَةً، كُلُّهُنَّ تَأْتي بِفَارسٍ يُجَاهِدُ في سَبيلِ اللهِ، فقالَ لهُ صَاحِبُهُ: قُلْ: إنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ: إنْ شَاءَ اللهُ، فَطَافَ عَلَيْهِنَّ جَميعاً، فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إلا امْرأَةٌ وَاحِدَةٌ جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَايْمُ الَّذي نَفْسُ مُحمَّدٍ بِيَدِهِ لو قال: إنْ شَاءَ اللهُ، لَجاهَدُوا في سَبيلِ اللهِ فُرسَاناً أجمَعُونَ».

أخرجه البخاري (٦٦٣٩) ومسلم (١٦٥٤).

قال الإمام النووي: قوله: «لأَطوفَنَّ»: هو هُنا كناية عن الجِماعِ. قوله: «على تسعين ٱمرأة»: في هذا بيانُ ما خُصَّ به الأَنبياءُ صلواتُ الله تعالى وسلامُه عليهم من القوَّة على إطاقةِ هذا في ليلةٍ واحدةٍ.

قوله: «لوٱستثنى» أي: قال: إنْ شاءَ الله.

قوله: «لَوَلَدَتْ كلُّ واحدةٍ منهن غلاماً فارساً يقاتلُ في سبيلِ الله»: هذا محمولٌ على أَنَّ النبيَّ ﷺ أُوحي إليه بذلك في حقِّ سليمان، لا أَنَّ كُلَّ مَنْ فَعَلَ هذا يحصل له هذا.

باب

الأعمال بالخواتيم

٧٧ ـ عن سَهلِ بن سَعْدٍ رضي الله عنه قال: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إنَّ ٱلْعَبْدَ لَيَعْمَلُ فِيما يَرَى ٱلنَّاسُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ وإنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وإنَّهُ لَيَعْمَلُ فِيما يَرى الناس بِعَمَلِ أَهْلِ ٱلنَّارِ وإنَّهُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وإنَّما الأعْمَالُ بالخَواتِيمِ».

أخرجه مسلم (١١٢).

باب

وعيد القدرية

٧٨ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جَاءَ مُشْرِكُو قُرَيشٍ إلى ٱلنَّبيِّ ﷺ يُخَاصِمُونَهُ في ٱلْقَدَرِ، فَنَزَلَتْ هذهِ الآيَةُ: ﴿إنَّ المُجْرِمِينَ في ضَلالٍ وَسُعُرٍ﴾ إلى قَولِهِ: ﴿إنَّا كُلَّ شَيءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٧ ـ ٤٩].

أخرجه مسلم (٢٦٥٦).

قال الإمام القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» ١٧ ـ ١٤٨: الذي عليه أهلُ السنة أَنَّ الله سبحانه قَدَّر الأشياءَ، أَي: عَلِمَ مقاديرَها وأحوالَها وأزمانَها قَبْلَ إيجادِها، ثم أَوْجَدَ منها ما سبق في عِلْمِهِ أَنه يوجده على نحوِ ما سبق في عِلْمِهِ، فلا يَحْدُثُ حَدَثٌ في العالم العلويِّ والسفلي إلاّ وهو صادرٌ عن عِلْمِهِ تعالى وقدرتِهِ وإرادته دون خَلْقِهِ، وأَنَّ الخَلْقَ ليس لهم فيها إلاّ نوعُ اكتسابٍ ومحاولةٍ ونِسْبَةٍ وإضافةٍ، وأَنَّ ذلك كُلَّه إنَّما حصل بتَيْسيرِ الله تعالى وبقدرته وتوفيقه سبحانه لا إله إلاّ هو.

٧٩ ـ عن أبي صخر، عن نافع قالَ: بَيْنَما نَحْنُ عِنْدَ عَبْدِاللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْه قُعُودٌ، إذْ جَاءَ إنْسَانٌ، فقال: إنَّ فُلاناً يَقْرأُ عَلَيْكَ ٱلسَّلاَمَ لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ ٱلشَّام، قالَ ٱبنُ عُمَرَ: إنَّهُ بَلَغني أَنَّهُ أحْدَثَ حَدَثاً، فَإنْ كانَ كَذلِكَ، فَلا تَقْرأْ عَلَيْهِ مِني ٱلسَّلامَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول: «يَكُونُ في أُمَّتي مَسْخٌ وَخَسْفٌ، وهُوَ في الزَّنْدَقَةِ وَٱلْقَدَرِيَّةِ».

حديث حسن دونَ قوله: وهو في الزندقة والقَدَرية ولعلها مدرجة من بعض الرواة وهو في «المسند» (٥٨٩٧) والترمذي (٢١٥٣) وابن ماجه (٤٠٦١). ورواه دون هٰذه الزيادةِ ابنُ حبان (٦٧٥٩) من حديث أبي هُريرة، ورواه ابنُ ماجه (٤٠٥٩) من حديث ابن مسعود، و(٤٠٦٠) من حديث سهل بن سعد، ورواه أحمد (٦٥٢١) وابن ماجه (٤٠٦٢) من حديث عبد الله بن عمرو، ورواه الترمذي (٢١٨٥) من حديث عائشة.

رُوي عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «القَدَريَّةُ مَجوسُ هذه الأمّة، إنْ مَرِضوا فلا تَعُودُوهم، وإن ماتوا فلا تَشهَدُوهم». وهذا حديثٌ إسنادُهُ ضعيفٌ، أخرجه أَحمد (٥٥٨٤) وفيه تَمامُ تخريجِه.

باب

أطفال المشركين

٨٠ ـ عن أبي هريرة: قالَ: سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ عَنْ أَولادِ المُشْرِكِينَ قال: «اللهُ أَعْلَمُ بِما كانُوا فَاعِلِينَ».

أخرجه البخاري (١٣٨٤) ومسلم (٢٦٥٩).

٨١ ـ عن أبي هريرة، قال: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ يُولَدُ يُولَدُ عَلَى ٱلْفِطْرَة، فَأَبَواهُ يُهَوِّدَانِهِ أوْ يُنَصِّرَانِهِ كَما تَنْتِجُونَ ٱلْبَهِيمَةَ، هَلْ تَجِدُونَ فِيها مِنْ جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَها».

قَالُوا: يا رَسُولَ الله أَفَرأَيْتَ مَنْ يَموتُ وهُوَ صَغيرٌ؟ قال: «اللهُ أَعْلَمُ بِما كانُوا عَامِلِينَ».

أخرجه البخاري (٦٥٩٩) ومسلم (٢٦٥٨).

قال الشيخ رحمه الله: أطفال المشركين لا يُحْكَمُ لهم بجنةٍ ولا نارٍ، بل أمرهم موكولٌ إلى علم الله تعالى فيهم، كما أفتى به الرسول ﷺ.

وجُمْلَةُ الأمر: أن مرجع العباد في المعاد إلى ما سبق لهم في علم الله سبحانه وتعالى من السعادة والشقاوة.

وقيل: حكم أطفال المؤمنين والمشركين حكم آبائهم، وهو المراد من قوله ﷺ: «الله أعلم بما كانوا عاملين» يدل عليه ما روي مفسراً عن عائشة أنها قالت: قلت: يا رسول الله ذراريُّ المؤمنين؟ قال: «من آبائهم» فقلت: يا رسول الله بلا عمل! قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» قلت: فذراريُّ المشركين؟ قال: «من آبائهم» قلت: بلا عمل! قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين».

أخرجه أبو داود (٤٧١٢) بإسنادٍ صحيحٍ.

وقال معمر عن قتادة عن الحسن أن سلمان قال: أولادُ المشركين خدَمُ أهل الجنة. قال الحسن: ما تعجبون! أكرمهم الله، وأكرمَ بهم.

قلنا: والذي عليه المحققون هو أنَّ أطفالَ المشركين في الجنَّةِ وقد أطال الإمامُ الحافظِ ابن القيم النَّفَسَ في نصرةِ هذا المذهب في كتابه «طريق الهجرتين» ص: ٦٨٦.

وقوله: «مَن يُولَد يُولَدُ على الفطرة» أصل الفطرة في اللغة: ابتداء الخِلقة، قال الله تعالى: ﴿الحمدُ للهِ فاطِرِ السَمواتِ والأرضِ﴾ [فاطر: ١] أي: مبتديها، يقال: فطر نابُ البعير: إذا طلَع أوَّلَ ما نبت.

قال حماد بن سلمة في معنى الحديث: هذا عندنا حيث أخذ الله عز وجل عليهم العهدَ في أصلاب آبائهم، فقال: ﴿ألستُ بربكم؟ قالوا: بلى﴾ [الأعراف: ١٧٢].

قال أبو سليمان الخطابي: معنى قول حماد في هذا حسن، وكأنه ذهب إلى أنه لا عبرة بالإيمان الفطري في أحكام الدنيا، وإنما يعتبر الإيمان الشرعي المكتسب بالإرادة والفعل، ألا ترى أنه يقول: «فأبواه يهوِّدانه وينصِّرانه» يعني في حكم الدنيا، فهو مع وجود الإيمان الفطري فيه محكوم له بحكم أبويه الكافِرَيْنِ.

قال الشيخ رحمه الله: معناه: أن الفطرة في هذا الحديث هي العهد الذي أُخِذَ عليهم بقوله تعالى: ﴿أَلستُ بربكم قالوا بلى﴾ [الأعراف: ١٧٢] وكلٌّ مقِرٌّ بأن له صانعاً مدبراً، وإن عبد ما سواه ظناً منه أنهُ يقَرِّبُه إليه، قال الله تعالى: ﴿ولئن سألتَهم مَن خلَقَهُمْ ليقُولنَّ الله﴾ [الزخرف: ٨٧] وقالوا ـ أي: الذين اتخذوا من دونه أولياء ـ ﴿مَا نعبُدُهم إلا ليقربونا إلى اللهِ زلفى﴾ [الزمر: ٣] وكل مولود في العالَمِ على ذلك الإقرار وهو الحنيفية التي وقعت الخِلقةُ عليها. قال النبي عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه مسلم (٢٨٦٥): «يقول الله تعالى: ﴿إني خلقتُ عبادِي جميعاً حنفاء فاجتَالتْهُمُ الشياطينُ عن دينهم» وذلك الإقرارُ لا يَبتني عليه ثوابٌ ولا حكم، ألا ترى أن الطفل محكوم بدين أبويه الكافرين، فإذا ملكه مسلم، حكم له بدين مالكه، والله أعلم.

قال الإمام البغوي رحمه الله: وقد روى بعضهم: «مَا مِن مَولودٍ يُولَد إلا على فِطرةِ الإسلامِ حتّى يُعرِبَ، فأبواه يُهَوِّدَانِه وينصِّرانِه». أخرجه أحمد (١٤٨٠٥) من حديث الحسنِ وهو مدلس وقد عَنْعَنَ.

أراد به الفطرة التي يعتقدها أهل الإسلام حيث قالوا: بلى، ولا يبتني عليه الحكم كما سبق.

قال الخطابي: وفيه وجه آخر ذهب إليه عبدالله بن المبارك حين سئل عنه، فقال في تفسير قوله حين سُئِلَ عن الأطفالِ، فقال: «الله أعلم بمَا كانوا عَامِلين» يريد ـ والله أعلم ـ أن كل مولود من البشر إنما يولد على فطرته التي جبل عليها في علم الله تعالى من السعادة أو الشقاوة، فكل منهم صائر في العاقبة إلى ما فطر عليه، وعامِلٌ في الدنيا بالعمل المشاكل لفطرته في السعادة والشقاوة.

فمِن أمارات الشقاوة للطفل أن يُولد بين يهوديين أو نصرانيين، فيحملانه ـ لشقائه ـ على اعتقاد دينهما، فينشأ عليه أو يموت قبل أن يعقل، فيصف الدين، فهو محكوم له بحكم والديه.

قال الشيخ رحمه الله: الذي يدل عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ [الروم: ٣٠] أي: لا تبديل لتلك الخِلْقَةِ التي خلقهم لها من الجنة أو النار كما جاء في الحديث: «خَلَقْتُ هَؤلاء للجنّةِ وبعَمل أهَلِ الجَنّةِ يَعْملون، وخَلَقْتُ هؤلاء للنّار وبَعَمل أهَلِ النّارِ يَعْملونَ».وقد سبق الحديث برقم (٧٤).

قال الخطابي: وفيه وجهٌ ثالثٌ وهو أن يكون معناه: أن كل مولود من البشر إنما يُولد في مبدأ الخلقة على الفطرة، أي: على الجبلَّة السليمة، والطبع المتهيىء لقبول الدين، فلو تُرِك عليها، لاستمرَّ على لزومها، ولم يفارقها إلى غيرها، لأن هذا الدين موجودٌ حُسْنُهُ في العقول، ويُسْرُهُ في النفوس، وإنما يعدِلُ عنه من يعدل إلى غيره لآفة من آفات النشوء والتقليد، فلو سَلِم المولودُ من تلك الآفات لم يعتقد غيره، ثم تمثل بأولاد اليهود والنصارى واتباعهم لآبائهم، والميل إلى أديانهم، فيزولون بذلك عن الفطرة السليمة، وعن المحجة المستقيمة.

وليس في هذا ما يوجب حكم الإيمان له إنما هو ثناء على هذا الدين، وإخبار عن سر محله من العقول، وحسن موقعه في النفوس. هذا قول أبي سليمان في كتابه «معالم السنن» ٤/ ٣٠٠.

نقول: وأشهر الأقوال وأصحها أن المراد بالفطرة: الإسلام، وهو المعروف عند عامة السلف، وأكثر أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ [الروم: ٣٠] الإسلام.

وقال ابن القيم: ليس المراد بقوله: «يولد على الفطرة» أنه خرج من بطن أمه يعلم الدين، لأن الله تعالى يقول: والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾ [النحل: ٧٨] ولكن المراد أن فطرته مقتضية لمعرفة دين الإسلام ومحبته، فنفس الفطرة تستلزم الإقرار والمحبة، وليس المراد مجرد قبول الفطرة لذلك، لأنه لا يتغير بتهويد الأبوين مثلاً بحيث يخرجان الفطرة عن القبول، وإنما المراد أن كل مولود يولد على إقراره بالربوبية، فلو خلي وعدم المعارض، لم يعدل عن ذلك إلى غيره، كما أنه يولد على ما يلائم بدنه من ارتضاع اللبن حتى يصرفه عنه الصارف. ولشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة في الموضوع فراجعها.

٨٢ ـ عن أبي هريرة قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إلا عَلى المِلَّةِ، فَأَبَواهُ يُهَوِّدَانِهِ ويُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُشَرِّكَانِهِ»، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ مَنْ مات مِنْهُمْ قَبْلَ ذلكَ؟ قالَ: «اللهُ أَعْلَمُ بِما كانُوا عَامِلِينَ».

أخرجه مسلم (٢٦٥٨).

قال الشيخ: وفي قوله حين سئل عمن مات منهم صغيراً: «اللهُ أَعْلَمُ بما كانوا عامِلِينَ» إثباتُ علم الله تعالى بما كان وبما يكون، وبما لم يكن لو كان كيف يكون، لأنه أخبر عن علمه بعد موتهم صغاراً بعملهم لو بَقُوا أحياءً وكَبُروا.

باب

قول الله سبحانه وتعالى

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وأَبْصَارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقالَ الله عَزَّ وجَلَّ: أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤].

قِيلَ: مَعْنَاهُ: يَمِلكُ عَلَيهِ قَلْبَهُ، فَيُصَرِّفُهُ كَيْفَ يَشَاءُ.

٨٣ ـ عن ابن عمر رضي الله عنه قال: كانتْ يَمينُ ٱلنَّبي ﷺ: «لا ومُقَلِّبِ ٱلْقُلُوبِ».

أخرجه البخاري (٦٦٢٨).

قال الحافظ في «الفتح» ١٣/ ٣٧٤: والمراد بتقليب القلوبِ تقليبُ أعراضِها وأحوالِها.

وفي الحديثِ دلالةٌ على أن أعمالَ القلب من الإرادات والدواعي وسائرِ الأعراضِ بخَلْقِ الله تعالى.

وفيه: جوازُ تسميةُ الله تعالى بما ثبت من صفاتِهِ على الوجه الذي يليقُ به.

وفيه: حُجَّةٌ لمن أَوْجَبَ الكَفَّارةَ على مَنْ حَلَفَ بصفة من صفات الله تعالى فحنث، وهي الصفة التي لا يشاركه فيها غيره كمقلِّب القلوبِ.

٨٤ ـ عن أبي موسى الأشعري قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «مَثَلُ ٱلْقَلْبِ كَرِيشَةٍ بِأَرْضٍ فَلاَةٍ تُقَلِّبُها الرِّيَاحُ ظَهْراً لِبَطْنٍ».

رجاله ثقات، وأخرجه أحمد (١٩٦٦١) و(١٩٧٥٧) وابن ماجه (٨٨)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٢٧) وقد اختلف في رفعه ووقفه، وله شواهد يتقوى بها.

قال السندي في حاشية ٱبن ماجه ١/ ٤٦: والمعنى أَنَّ صفةَ القَلْبِ العجيبة الشأن، وورودَ ما يَرِدُ عليه من عالم الغيبِ مِن الدواعي، وسرعة تقلُّبِها بسببِ الدواعي كريشةٍ واحدةٍ تقلِّبها الرياح بأرضٍ خاليةٍ من العمران.

٨٥ ـ عن أنس بن مالك قال: كانَ رَسُولُ الله ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ ٱلْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبي عَلى دِينِكَ» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله آمَنَّا بِكَ وبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: «ٱلْقُلُوبُ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ يُقَلِّبُها».

أخرجه مسلم (٢٦٥٤) والترمذي (٢١٤٠).

٨٦ ـ عن النوَّاسِ بنِ سِمْعانَ الكِلابيِّ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ قَلْبٍ إلاّ وهُوَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ رَبِّ العَالَمِينَ إِذَا شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ، وإِذَا شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَزَاغَهُ» قال: فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «يَا مُقَلِّبَ ٱلْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبي عَلى دِينِكَ، والمِيْزانُ بِيَدِ الرَّحمنِ يَرْفَعُ أَقْوامَاً ويَضَعُ آخَرِينَ إِلى يَومِ ٱلْقِيَامَةِ».

إسناده صحيح، وأخرجه أحمد (١٧٦٣٠).

قال الشيخ الإمام: فيه بيان أن العبد ليس إليه شيءٌ من أمر سعادته أو شقاوته، بل إن اهتدى، فبهداية الله إيّاه، وإن ثبتَ على الإيمان فبتَثْبيته، وإن ضلَّ فبصَرْفِه عن الهدى.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿بلِ اللهُ يَمُنُّ عليكم أنْ هداكم للإيمان﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال الله سبحانه وتعالى إخباراً عن حمدِ أهلِ الجنّة: ﴿الحمدُ لله الذي هدانا لهذا وما كُنَّا لِنَهتديَ لولا أن هدانا اللهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال الله عزّ وجلّ: يُثَبِّتُ الله الذينَ آمنُوا بالقَولِ الثابِتِ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

٨٧ ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قالَ أَصْحَابُ ٱلنَّبيِّ: يا رَسُولَ اللهِ إنَّا إذا كُنَّا عِنْدَك رَأَيْنَا مِنْ أَنْفُسِنَا مَا نُحِبُّ، فَإِذَا رَجَعْنَا إلى أَهْلِينَا، فَخَالَطْنَاهُمْ أَنْكَرْنَا أَنْفُسَنا، فَقَال ٱلنَّبيُّ ﷺ: «لَوْ تَدُومُونَ

عَلى مَا تَكُونُونَ عِنْدي وفي الخَلاَءِ، لَصَافَحَتْكُمُ المَلائِكَةُ حَتَّى تُظِلَّكُمْ بِأَجْنِحَتِها عِيَاناً».

أخرجه مسلم (٢٧٥٠) من رواية حنظلة الأُسَيْدي.

قال أبو الدّرداء: كان ابن رواحة يأخذ بيدي ويقول: تعال نؤمن ساعةً؛ إن القلب أسرعُ تقلُّباً من القِدْرِ إذا استَجْمَعت غلياً.

قال الشيخ الإمام: والإصْبَعُ المذكورة في الحديث صفة من صفات الله عز وجل، وكذلك كلُّ ما جاء به الكتاب أو السنّة من هذا القبيل في صفات الله تعالى، كالنَّفس، والوجه، والعين، واليد، والرِّجل، والإتيان، والمجيء، والنُّزول إلى السماء الدُّنيا، والاستواء على العرش والضحك والفرح.

قال الله سبحانه وتعالى لموسى: ﴿واصْطنعتُكَ لنفسي﴾ [طه: ٤١] وقال الله عز وجل: ﴿ولِتُصْنع على عَيْني﴾ [طه: ٣٩] وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿كل شيء هالِكٌ إلا وَجْهه﴾ [القصص: ٨٨] وقال الله عز وجل: ﴿ويَبْقى وجهُ ربِّك ذو الجلالِ والإكرام﴾ [الرحمن: ٢٧] وقال الله عز وجل: ﴿بَل يَداهُ مبسوطتانِ﴾ [المائدة: ٦٤] وقال: ﴿يا إبْلِيسُ ما مَنَعَك أنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقتُ بيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، ﴿والأرضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يَومَ القِيَامَةِ والسَّمواتُ مَطوِيَّاتٌ بيَمينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، ﴿هَلْ يَنظرونَ إلا أنْ يأتيَهُمُ اللهُ في ظُلَلٍ من الغَمام﴾ [البقرة: ٢١٠] وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وجاءَ ربُّكَ والمَلكُ صَفّاً صَفّاً﴾ [النبأ: ٣٨] وقال الله عز وجل: ﴿الرَّحمن على العَرشِ استوى﴾ [طه: ٥] وقال الله تعالى: ﴿ثمَّ استَوى على العَرْشِ الرحمنُ﴾ [الفرقان: ٥٩].

وفي البخاري (١١٤٥) من حديث أبي هريرة: «يَنزِلُ رَبُّنا كُلَّ ليلةٍ إلى السماء الدُّنيا حين يبقى ثلثُ الليلِ الآخِرِ»، ورَوى أنسٌ عن النبي ﷺ قال: «لا تَزالُ جَهنَّمُ يُلقى فيها، وتقول: هلْ مِنْ مَزيدٍ حتى يَضَعَ ربُّ العِزَّةِ فيها قدَمَهُ» أخرجه مسلم (٢٨٤٨)، وفي رواية أبي هريرة: «حتَّى يَضَعَ اللهُ رِجلَه»، أخرجه البخاري (٤٨٤٨).

وفي حديث أبي هريرة في آخر من يخرج من النار: «فيَضْحَكُ اللهُ منه، ثم يَأذَنُ له في دخولِ الجنَّة» مُتَّفقٌ عليه.

وفي حديث جابرٍ: «فيَتَجلَّى لهم يضحَك» أخرجه مسلم (١٩١).

وفي حديث أنسٍ وغيره: «اللهُ أفرَحُ بتوبَةِ عبده مِنْ أحدِكُم يَسقُطُ على بَعيرِه وقد أضلَّهُ في أرضٍ فَلاةٍ». أخرجه البخاري (٦٣٠٩) ومسلم (٢٦٧٥).

فهذه ونظائرها صفاتٌ لله تعالى، ورَد بها السَّمْعُ يجب الإيمان بها، وإمرارُها على ظاهرها معرِضاً فيها عن التأويل، مُجتَنِباً عن التشبيه، مُعتقِداً أن الباري سبحانه وتعالى لا يشبه شيءٌ من صفاته صفاتِ الخلق، كما لا تُشبِهُ ذاتُه ذواتِ الخلق، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ليسَ كمثْلِهِ شيء وهو السَّميعُ البَصيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وعلى هذا مضى سَلفُ الأمة، وعلماء السُنَّة، تلَقَّوْها جميعاً بالإيمان والقبول، وتجنَّبوا فيها عن التمثيل والتأويل، وَوكلوا العلم فيها إلى الله عز وجل، كما أخبر الله سبحانه وتعالى عن الراسخين في العلم، فقال عز وجل: ﴿والرَّاسِخُونَ في العِلْمِ يقُوْلُونَ آمنّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عنْدِ ربِّنا﴾ [آل عمران: ٧].

قال سفيان بن عُيينة: كلُّ ما وصف الله تعالى به نفسَه في كتابه، فتفسيرُه قراءته، والسكوتُ عليه، ليس لأحدٍ أن يُفسِّره إلا الله عز وجل ورسُلُه.

وسألَ رجلٌ مالكَ بن أنسٍ عن قوله سبحانه وتعالى: ﴿الرَّحمن على العرشِ استوى﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ فقال: الاستواء غير مجهول، والكيفُ غير معقول، والإيمان به واجبٌ، والسؤال عنه بدعةٌ، وما أراكَ إلا ضالاً. وأمر به أن يُخرج من المجلِس.

وقال الوليد بن مُسلم: سألت الأوزاعِيَّ، وسفيانَ بن عُيينَة، ومالك بن أنسٍ عن هذه الأحاديث في الصِّفات والرُّؤية، فقال: أمِرُّوها كما جاءت بلا كيف.

وقال الزُّهريُّ: على الله البيان، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم.

قال بعض السَّلَفِ: قدَمُ الإسلامِ لا تثبت إلا على قنطرة التسليم. قال أبو العالِية: ثم استوى إلى السماء﴾ [البقرة: ٢٩] ارتفع فسَوّى خلقهنَّ، وقال مجاهِد: استوى: علا على العرش.

باب

الردِّ على الجَهْمِيَّة

قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى: ﴿كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، سَمَّى اللهُ نَفْسَهُ شَيئاً.

وقالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيء أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيْدٌ بَيني وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩].

وَسَمَّى ٱلنَّبي ﷺ ٱلْقُرآنَ شَيْئاً، فَقَالَ لِرَجُلٍ: «أَمَعَكَ مِنَ ٱلْقُرآنِ شَيءٌ»؟ قَالَ: نَعَمْ.

أخرجه البخاري (٧٤١٧).

«الجَهْمِيَّةُ»: هم المنسوبون إلى جَهْم بن صفوان السمرقندي الراسبي، وهو جبري خالص، وافق المعتزلة في نفي الصفات، وزاد عليهم بأشياء، وقد ظهرت بدعته في ترمذ، وقتله سلمة بن أحوز بمرو في أواخر ملك بني أمية انظر «مقالات الإسلاميين» ١/ ٢٢٤، «والانتصار»: ١٨٠، «والملل والنحل» ١/ ١١٣ للشهرستاني «والبداية» ١٠ ـ ١٦ لابن كثير.

٨٨ ـ عن أبي موسى قال: قَامَ فِينا رَسُولُ الله ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: «إنَّ اللهَ لا يَنَامُ، ولا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، وَلكِنَّهُ يَخْفِضُ ٱلْقِسْطَ ويَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إليهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ ٱلنَّهَارِ، وعَمَلُ ٱلنَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ

اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَه لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إليهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ».

أخرجه مسلم (١٧٩).

قوله ﷺ: «يخفِض القِسط ويرفعُه» قيل: أراد به المِيزان، كما قال الله تعالى: ﴿ونَضَعُ الموازِينَ القِسْطَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] أي: ذوات القسط وهو العدل، وسُمِّي الميزان قِسطاً، لأن العدل في القسمة يقع به، وأراد أن الله يَخفِضُ الميزان ويرفعه بما يُوزَنُ من أعمال العباد المرفوعة إليه، وبما يُوزن من أرزاقهم النازِلة من عنده، كما قال الله تعالى: ﴿وما نُنَزِّلُه إلا بقدَرٍ معْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] هذا مثلٌ فيما يُدبِّرُه من أمر الخلق، ويُنشِئُه من حُكْمِه فيهم، يَرفعُ قوماً، ويضعُ آخرين، وهو الخافضُ الرافع، الحَكَمُ العدلُ، تبارك الله ربُّ العالمين.

وقيل: أراد بالقِسط: الرزق الذي هو قِسطُ كل مخلوقٍ، يخفضُه مرَّةً فيَقْتُرُهُ، ويرفعه مرَّة فيبسُطه، يريد أنه مُقدِّر الرزق وقاسمُهُ، كما قال الله تعالى: ﴿يَبْسُطُ الرِّزق لمنْ يشاءُ ويَقدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦].

وقوله: «سُبحُاتُ وجهِه» أي: نورُ وجهه، ويقال: جلال وجهِه، ومنها قِيل: «سُبحانَ الله» إنما هو تعظيمٌ له وتنزيهٌ، وقول سبحانك، أي: أُنزِّهُك يا ربِّ من كلِّ سُوءٍ.

قال الخطابيُّ: ومعنى الكلام أنه لم يطلع الخلق من جلال عظمته إلا على مقدار ما تُطيقُه قلوبُهم، وتَحتمِلهُ قواهم، ولو أطلعهم على كُنهِ عظمتِه، لانخلَعتْ أفئدَتُهم، وزَهِقَتْ أنفُسهُم، ولو سلط نورَه على الأرض والجبال، لاحترقت وذابت، كما قال في قصة موسى عليه السلام: فلمَّا تجلَّى رَبُّهُ للجبل جعله دكّاً وخرَّ موسى صَعِقاً﴾ [الأعراف: ١٤٣].

٨٩ ـ عن جُبير بن محمد بن جُبير بن مُطعم، عن أبيه، عن جدّه قال: جَاءَ أَعْرَابيٌ إلى ٱلنَّبيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله نُهِكَتِ الأَنْفُسُ، وَجَاعَ ٱلْعِيَالُ، وَهَلَكَتِ الأَمْوَالُ، فَاسْتَسْقِ لَنا رَبَّكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ باللهِ عَلَيْكَ، وَبِكَ عَلى اللهِ.

فَقَالَ ٱلنَّبي عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ: «سُبْحَانَ اللهِ، سُبْحَانَ اللهِ» فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذلِكَ في وجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا اللهُ، إِنَّ شَأْنَهُ أَعْظَمُ مِنْ ذلِكَ، إِنَّهُ لا يُسْتَشْفَعُ بِهِ عَلى أَحَدٍ، إِنَّهُ لَفَوقَ سَمَاواتِهِ عَلى عَرْشِهِ، وإِنَّهُ عَلَيْهِ لَهكَذَا ـ وأَشَارَ وَهْبٌ بِيَدِهِ مِثْلَ ٱلْقُبَّةِ عَلَيْهِ، وأَشَارَ أَبو الأَزْهَرِ أَيضاً ـ إِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بالرَّاكِبِ».

أخرجه أبو داود رقم (٤٧٢٦) في السنة: باب في الجهمية والدارمي في «الرد على الجهمية»، ص٢٤، وفيه جبير بن محمد بن جبير مجهول وقد تفرد به، فالحديث ضعيف لا تقوم به الحجة، ولا يتكلف لتأويله كما فعل الخطابي رحمه الله.

قال الشيخ: هذا الحديث أورده أبو داود سليمان بن الأشعث في باب الرَّد على الجهْمِيَّة والمعتزلة عن عبدالأعلى بن حمَّاد، ومحمد بن المثنى، ومحمد بن بشَّار، وأحمد بن سعيد الرّباطي عن وهب بن جرير بإسناد أبي الأزهر أحمد بن الأزهر ومعناه، وقال ﷺ: «إن عرشه على سمواته لهكذا ـ و قال بأصابعه مثل القبة عليه ـ وإنه ليئط به أطيطَ الرَّحل بالراكب».

قال رضي الله عنه: وهو المراد من قوله: «وإنه عليه لهكذا» في رواية أبي الأزهر.

وذكر أبو سليمان الخطابي على هذا الحديث: أن الكيفية عن الله وعن صفاته منفية، وإنما هو كلامُ تقريبٍ أُريد به تقريرُ عظمة الله وجلاله من حيث يُدركه فَهمُ السائل.

ومعنى قوله: «أتدري ما الله؟» معناه: أتدري ما عظمة الله وجلاله.

وقوله: «إنه ليئط به» معناه: ليعجَز عن جلاله وعظمته حتى يئط به أن كان معلوماً أن أطيط الرحل بالراكب إنما يكون لقوة مافوقه، ولعجزه عن احتماله ويُقرِّر بهذا النوع، من التمثيل عنده معنى عظمة الله وجلاله، وارتفاع عرشه، ليعلم أن الموصوف بعلو الشأن، وجلالة القدر لا يُجعل شفيعاً إلى مَنْ هو دونه، تعالى الله عن أن يكون مشبَّهاً بشيء، أو مكيَّفاً بصورة خلق، أو مدرَكاً بِحَدٍّ ﴿ليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١].

قال الشيخ رحمه الله: والواجب فيه وفي أمثاله: الإيمان بما جاء في الحديث، والتسليم، وترك التصرف فيه بالعقل، والله الموفق.

قلنا: الوجوبُ فرعٌ على الصحة، فإما إذا لم يثبت الحديث فلا.

وقال رحمه الله: وعلى العبد أن يعتقد أن الله سبحانه وتعالى عظيم له عظمة، كبير له كبرياء، عزيز له عزة، حيٌّ له حياةٌ، باقٍ له بقاءٌ، عالمٌ وله علمٌ، ومتكلمٌ وله كلامٌ، قويٌّ وله قوةٌ، وقادرٌ وله قُدرةٌ، وسميعٌ وله سمعٌ، بصيرٌ وله بصرٌ.

قال الله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ باسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]. وقال الله عز وجل: ﴿وأَنَّ اللهَ هو العَليُّ الكَبيرُ﴾ [الحج: ٦٢] وقال الله تعالى: ﴿وله الكِبرياءُ في السمواتِ والأرضِ﴾ [الجاثية ٣٧] وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وكانَ اللهُ عَزيزاً حكيماً﴾ [الفتح: ٧] وقال الله تعالى: ﴿مَنْ كانَ يُريدُ العِزَّةَ فلِلَّهِ العِزةُ جمِيعاً﴾ [النساء: ١٣٩].

وقال النبي ﷺ عن الله عز وجل: «وعِزّتي وَجلالي وكِبريائي وعظمتي لأُخرِجَنَّ منها من قال: لا إله إلا الله». أخرجه البخاري (٧٥١١).

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿هو الحيُّ الذي لا إله إلا هو﴾ [غافر: ٦٥]، ﴿وَعنَتِ الوُجُوهُ لِلحَيِّ القَيُّومِ﴾ [طه: ١١١] وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ويَبقى

وجهُ ربِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] وقال الله عز وجل: ﴿عالِمُ الغيْبِ لا يَعْزُبُ عنه مِثقالُ ذرَّةٍ﴾ [سبأ: ٣]، وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وكان اللهُ عليماً حكيماً﴾ [النساء: ١٧]، وقال تبارك وتعالى: ﴿أنزَله بعِلْمِه﴾ [النساء: ١٦٦] وقال عز وجل: ﴿وما تَحمِلُ من أُنثى ولا تضعُ إلا بِعلْمِهِ﴾ [فاطر: ١١]، وقال عز وجل: ﴿ولا يُحيطونَ بشيءٍ من عِلْمِهِ إلا بما شاء﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وكلَّمَ اللهُ موسى تكليماً﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال عز وجل: ﴿يُريدون أن يُبدِّلوا كلامَ الله﴾ [الفتح: ١٥]، وقال جلَّ ذِكْرُه: ﴿إنَّ اللهَ لقويٌّ عزيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال عز وجل: ﴿ذُو القوَّةِ المتينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هُوَ القادِرُ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قَديرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]، وقال عز وجل: ﴿عِندَ مَليكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥]، وقال الله تعالى: ﴿وكان اللهُ سميعاً بَصيراً﴾ [النساء: ١٣٤]، وقال تعالى: ﴿قدْ سمع اللهُ قولَ التي تُجادِلُك في زوجِها﴾ [المجادلة: ١]، وقال عز وجل: ﴿إنَّني مَعَكُما أسمعُ وأرى﴾ [طه: ٤٦].

وقال النبي ﷺ: «حِجابُه النُّورُ لو كشف لأحرَقَتْ سُبُحَاتُ وجهِه ما انتهى إليه بصرُه من خلقِه».

ويجب أن يُعتقدَ أنَّ الله عزّ اسمهُ قديم بجميع أسمائه وصفاته، لا يجوز له اسمٌ حادثٌ، ولا صفة حادثة، كان الله خالقاً ولا مخلوق، وربّاً ولا مَربوب، ومالكاً ولا مملوك، كما هو الآخِرُ قبل فناء العالَم، والوارثُ قبل فناء الخلق، والباعثُ قبل مجيء البعث، ومالكُ يوم الدِّين قبل مجيء يوم القيامة.

وأسماء الله تعالى لا تُشْبِه أسماء العباد، لأن أفعال الله تعالى مشتقة من أسمائه، وأسماء العباد مشتقة من أفعالهم وفي «المسند» ٣/١٩٨ (١٦٥٩) بإسنادٍ صحيح لغيرِه، قال النبي ﷺ: «يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أنا الرحمن خلقتُ الرَّحِمَ وشققتُ لها من اسمي».

فبيَّن أن أفعاله مشتقة من أسمائه، فلا يجوز أن يُحدَثَ له اسمٌ بحدوث فعله، ولا يُعْتقَد في صفات الله تعالى أنها هو ولا غيرُه، بل هي صفاتٌ له أزليةٌ، لم يزَلْ جلَّ ذِكْرُهُ، ولا يزالُ مَوصوفاً بما وصف به نفسَه، ولا يبلغ الواصفون كُنْهَ عظمتِه، هو الأوَّلُ والآخِرُ، والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم.

بابٌ

الردِّ على من قال بخلق القرآن

قالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالى: ﴿هذا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيكُمْ بِالحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩].

فَالقُرآنُ كَلامُ اللهِ وَوَحْيُهُ، وَتَنْزِيلُهُ وَصِفَتُهُ، لَيْسَ بِخَالِقٍ، وَلاَ مَخْلُوقٍ، وَلا مُحْدَثٍ وَلا حَادِثٍ، مَكْتُوبٌ في المَصَاحِفِ، مَحْفُوظٌ في ٱلْقُلُوبِ، مَتْلُوٌّ بالأَلسُنِ، مَسْمُوعٌ بالآذانِ، قالَ اللهُ تَعَالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلنا الذِّكْرَ وإنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقال اللهُ تَعَالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩].

وقالَ اللهُ تَعَالى: ﴿وٱلطُّورِ. وكِتَابٍ مَسْطُورٍ. في رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ [الطور: ١ ـ ٣].

وقَالَ تَعَالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرآنٌ مَجِيدٌ. في لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢٢].

وقال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ في صُدُورِ الَّذِينَ أُوتوا العِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وقالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ. عَلى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤].

وقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المُسْلِمينَ. وأَنْ أَتْلُوَ ٱلْقُرآنَ﴾ [النمل: ٩١، ٩٢].

وقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿واذْكُرْنَ مَا يُتْلَى في بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ والحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

وقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

وقالَ ٱبنُ عبَّاسٍ: ﴿لَوْلاَ أَنْ يَسَّرَهُ عَلى لِسَانِ الآدَمِيِّينَ مَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكلامِ اللهِ.

وقالَ الله تعالى: ﴿وإِنْ أَحَدٌ مِنَ المُشرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كلامَ اللهِ﴾ [التوبة: ٦].

وقالَ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الجِنِّ يسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وقَالَ عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً. يَهْدِي إلى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ١ ـ ٢].

وقَولُهُ تَعَالى: ﴿مَا يأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، ليسَ ذلِكَ حَدَثَ الخَلْقِ، إِنَّما هُوَ حُدُوثُ أَمْرٍ، كَما قَالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿لعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْرَاً﴾ [الطلاق: ١].

وقالَ ابنُ مَسْعُودٍ عَن ٱلنَّبيِّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحْدِثُ مِنْ أَمْرِهِ ما يَشَاءُ، وإِنَّ مِمَّا أَحْدَثَ أَنْ لا تَكَلَّمُوا في ٱلصَّلاةِ». صحَّحه ٱبن حبان (٢٢٤٣) وإِسناده حسن.

وقولُهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢].

يُرِيدُ: ذِكْرَ ٱلْقُرآنِ لَهُمْ، وَتلاوَتَه عَلَيْهِمْ، وَعِلْمَهُمْ بِهِ، كُلُّ ذلِكَ مُحْدَثٌ، فَالمَذْكُورُ المَتْلُوُّ المَعْلُومُ غيرُ مُحْدثٍ، كما أنَّ ذِكْرَ العَبْدِ للهِ مُحْدَثٌ، والمذكورُ غَيْرُ مُحْدَثٍ.

وَرُوِيَ عَن ٱبن عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُ في قَولِهِ عَزَّ وَجلَّ: ﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]، قالَ: غَيْرَ مَخْلُوقٍ.

وقَالَ سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَةَ: بَيَّنَ اللهُ الخَلْقَ مِنَ الأَمْرِ، فقالَ تَعَالى: ﴿أَلا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقَولُهُ تَعَالى: ﴿الرَّحْمنُ. عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ. خَلَقَ الإِنسَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٣]، فَلَمْ يَجْمَعِ ٱلْقُرآنَ مَعَ الإِنْسَانِ في الخَلْقِ، بَلْ أَوقَعَ اسْمَ الخَلْقِ عَلى الإِنْسَانِ، وٱلتَّعْلِيمَ عَلى ٱلْقُرآنِ.

وقَالَ اللهُ تَعَالى: ﴿قُلْ لَوْ كانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩].

وقَالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

٩٠ ـ عن أبي هريرة: أَنَّ رَجُلاً مِنْ أَسْلَمَ قَالَ: مَا نِمْتُ هذهِ اللَّيْلَةَ، فَقالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مِنْ أَيِّ شَيءٍ؟» قالَ: لَدَغَتْني عَقْرَبٌ، قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَمَا إِنَّكَ لَوْ قُلْتَ حِينَ أَمْسَيتَ: أَعُوذُ بِكَلِماتِ اللهِ ٱلتَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّكَ إِنْ شَاءَ اللهُ».

أخرجه مسلم (٢٧٠٩).

وفي هذا الحديث وفي أمثاله ممّا جاء فيه الاستعاذة بكلمات الله دليلٌ على أن كلام الله غير مخلوق، لأن النبي ﷺ استعاذ به، كما استعاذ بالله، فقال ﷺ: ﴿أعوذُ بكَ من هَمزاتِ الشياطين * وأعوذ بك رَبِّ أنِ يَحضُرونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨]، وقال: ﴿أعوذُ بربِّ الفلق﴾ وقال: «أعوذ بالله من الشيطان الرَّجيم».

واستعاذ بصفاته، كما جاء في دعاء المشتكي فيما أخرجه مسلم (٢٢٠٢) «قل: أعوذ بعزَّة الله وقدرته من شرِّ ما أجِدُ»، ولم يكن النبي ﷺ يستعيذ بمخلوقٍ من مخلوقٍ.

وبلغني عن أحمد بن حَنبل رحمه الله أنه كان يستدل بقوله: «أعوذ بكلمات التامَّات» على أن القرآن غيرُ مخلوقٍ، لأنه ما من مخلوق إلا وفيه نقْصٌ.

وقد فَسَّر ٱبن الجوزيِّ ثباتَ الإمام أَحمد في محنة «خلق القرآن» بقوله في «صيد الخاطر»: ١٧١: فثبت الإمام أحمد رحمه الله ثبوتاً لم يثبته غيرُه على دفع هذا القَوْلِ، لئلاّ يتطرَّقَ إلى القرآنِ ما يَمْحو بَعْضَ تَعظيمِهِ في النفوسِ، ويُخرجه عن الإضافةِ إلى الله عز وجَّل.

وقيل: كلمات الله في هذا الحديث: القرآن، وروي عن عكرمة قال: صلى ٱبن عباس على جنازة، فقال رجلٌ من القوم: اللهمَّ ربَّ القرآن العظيم اغفر له، فقال ٱبن عباس: لا تقُلْ مثل هذا، إنَّ القرآنَ منه بدأ وإليه يعُود.

قال الشيخ رحمه الله: وقد مضى سلفُ هذه الأمَّة، وعلماءُ السنة على أن القرآن كلامُ الله، ووحْيُه ليس بخالق ولا مخلوق، والقول بخلق القرآن ضلالة وبدعة، لم يتكلم بها أحد في عهد الصحابة والتابعين رحمهم الله، وخالف الجماعةَ الجَعْدُ بن درهم، فقتله خالد بن عبدالله القَسْرِيُّ بذلك، فخطب بواسط في يوم أضحى، وقال: «ارجعُوا أَيُّها النَّاسُ فَضحُّوا تقبَّل الله منكم، فَإني مُضحٌّ بالجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، سبحانه وتعالى عما يقول الجعد»، ثم نزل فذبحه.

وكان الجهم بن صفوان صاحب الجهمية أخذ هذا الكلام من الجعد بن درهم.

وقال سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار: سمعت مشيختنا منذ سبعين سنة يقولون: القرآن كلام الله ليس بمخلوق.

وعن جعفر بن محمد الصادق أنه سئل عن القرآن، فقال: أقول فيه ما يقول أبي وَجدِّي: ليس بخالق ولا مخلوق، ولكنه كلام الله.

وقال يحيى بن خلف المقرىء: كنت عند مالك بن أنس، فجاء رجل فقال: ما تقول فيمن يقول: القرآن مخلوق؟ فقال: عندي كافر فاقتلوه. وعن ابن المبارك، والليث بن سعد، وابن عيينة، وهُشَيْم، وعلي بن عاصم، وحفص بن غِياث، ووكيع بن الجراح مثلُه.

وقيل لعبدالرحمن بن مهدي: إن الجهْمِيّة يقولون: إن القرآن مخلوق؟ فقال: إن الجهميَّة أرادوا أن ينفوا أن يكون الرحمن على العرش استوى، وأرادوا أن ينفوا أن يكون الله كَلَّم موسى، وأرادوا أن ينفوا أن يكون القرآن كلامَ الله، أرى أن يُستتابوا، فإن تابوا وإلا ضُرِبَتْ أعناقُهم.

وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة: سمعت الربيع يقول: لما كلم الشافعي حفص الفَرْد، فقال حفص: القرآن مخلوق، فقال له الشافعي رضي الله عنه: كفرتَ بالله العظيم.

قال الشيخ رحمه الله: واليمين لا تنعقد إلا بالله أو باسْم من أسمائه أو صفة من صفاته، ولا تنعقد بشيءٍ من المخلوقات، فاليمين بالله، كقوله: والذي نفسي بيده، والذي أعبده، ونحو ذلك.

واليمين بأسمائه، كقوله: والله، والرحمن، والخالق، ونحو ذلك. واليمين بصفاته كقوله: وعزة الله، وجلال الله، وكلام الله، وعلم الله، ونحو ذلك.

وحكى الربيع عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: من حلف بالله أو باسم من أسماءِ الله، فحَنِثَ، فعليه الكفارة، فإن قال: وحقّ الله، وعظمةِ الله، وجلالِ الله،

وقُدْرَة الله يريد بها اليمين، أو لا نيَّة له، فهو يمين، ومن حلف بشيء غير الله، مثل أن يقول: والكعبةِ وأبي فَحَنِثَ، فلا كفارة عليه، لأن هذا مخلوق، وذلك غير مخلوق.

باب

الاعتصام بالكتاب والسنة

قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وكتابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ ٱلسَّلامِ﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦].

وقالَ سُبْحَانَهُ وتَعَالى: ﴿واعْتَصِمُوا بِحبْلِ اللهِ جَميعاً ولا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

حِبْلُ اللهِ: ﴿عَهْدُهُ، وقال أبو عبيد: الاعتصام بحَبْلِ اللهِ: هُوَ اتِّباعُ ٱلْقُرآنِ، وتَرْكُ ٱلْفُرقَةِ.

وقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالى: ﴿وَاتَّبعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥]، يَعني: اتَّبِعُوا ٱلْقُرآنَ كمَا قَالَ اللهُ تَعَالى: ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقَالَ الله سُبْحَانَهُ وتَعَالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلنَاهُ إليكَ مُبَارَكٌ ليَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩].

قالَ الحَسَنُ: تَدَبُّرُ آيَاتِهِ: اتِّباعُهُ، وٱلْعملُ بِعِلْمِهِ، ما هُوَ بِحِفْظِ حُرُوفِهِ، وإضَاعَةِ حُدُودِهِ.

وقالَ مُجَاهِدٌ في قَولِهِ تَعَالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، قالَ: يَعْمَلُونَ بِهِ حَقَّ عَمَلٍ بِهِ.

وقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿هذا بَلاَغٌ لِلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، يَعني: هذا ٱلْقُرآنُ ذو بَلاغٍ، أَي: ذُو بَيانٍ كافٍ، وٱلْبَلاغَةُ: هيَ ٱلْبَيانُ ٱلْكافي.

وقَولُهُ تَعَالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرآنَ﴾ [النساء: ٨٢]، أَي: لا يَتَفَكَّرُونَ فَيَعْتَبِرُوا، يُقال: تَدَبَّرْتُ الأَمْرَ: إِذَا نَظَرْتَ في أَدْبَارِهِ وعَواقِبِهِ.

وقَولُهُ تَعَالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا ٱلْقَوْلَ﴾ [الأحزاب: ٢١]، أَي: لم يَتَفَهَّمُوا ما خُوطِبُوا بِهِ في ٱلْقُرآنِ.

وقالَ الله: ﴿وكَذلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرآناً عَرَبِيّاً﴾ إِلى قَولِهِ تَعَالى: ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾ [طه: ١١٣]، أَي: تَذَكُّراً.

وقَولُهُ: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

قيلَ: مَعناهُ: مَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ ٱلْقُرآن ومَا فِيهِ مِنَ الحِكَم إِلى أَقَاويلِ المُضِلِّينَ وأَبَاطِيْلِهِمْ، نُعَاقِبْهُ بِشَيْطَانٍ نُقَيِّضُهُ لَهُ حَتَّى يُضِلَّهُ وَيُلازِمَهُ قَرِيناً لَهُ.

وقَالَ اللهُ تَعَالى: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾ [النور: ٦٣]، وقَالَ مُجَاهِدٌ: أُمِرُوا أَنْ يَدْعُوهُ في لِينٍ وتَواضُعٍ، وقيلَ: لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ إِذا دَعَاكُمْ لأَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ، كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعضاً تُجِيبُونَ إِذا شِئْتُمْ، وتَمتَنِعُونَ إِذا شِئْتُمْ.

وسَأَلَ رَجُلٌ مَالِكاً مَسْأَلَةً، فقالَ مالك: قالَ رَسُولُ الله ﷺ... فقالَ الرجل: أَرأَيْت؟ قالَ مالك: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَو يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وقالَ سُبْحَانَهُ وتَعَالى: ﴿قُلْ إِنَّني هَدَاني رَبِّي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً﴾ [الأنعام: ١٦١]، أَي: مُسْتَقِيماً.

وقالَ اللهُ عَزَّ وجلَّ: ﴿وعَلى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]، أي: تَبْيِينُ ٱلطَّريقِ المُسْتَقيم، والدُّعَاءُ إليهِ بالحُجَجِ وٱلبَرَاهِينِ الوَاضِحَةِ ﴿ومنها جَائِرٌ﴾ أي: طَرِيقٌ غَيْرُ قَاصِدٍ.

وقالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿وإنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]، وقال اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعالى: ﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧].

وقالَ سُبْحَانَهُ وتَعالى: ﴿ومَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ولا مُؤْمِنَةٍ إذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، أي: الاختِيَارُ.

وقالَ عَزَّ وجَلَّ: ﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ في رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، أَي: قُدْوَةٌ، يُقال: تأَسَّى بِهِ، أَي: اتَّبَعَ فِعْلَهُ، واقْتَدى بهِ، ويُقال لِلتَّعْزِيَةِ: ٱلتَّأْسِيَةُ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: قَد أَصَابَ فُلاناً مَا أَصَابَكَ، فَصَبَرَ، فَتأَسَّ بِهِ واقْتَدِ.

٩١ ـ عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: «جَاءَتْ مَلائِكَةٌ إلى ٱلنَّبيِّ ﷺ وهُو نَائِمٌ، فقالَ بَعْضُهُمْ: إنَّه نَائِمٌ، وقالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ ٱلْعَيْنَ نَائِمَةٌ، وٱلْقَلْبَ يَقْظَانُ فَقَالُوا: إنَّ لِصَاحِبِكُمْ هذا مَثَلاً، فَاضْرِبُوا لَهُ مَثَلاً، فقالَ بَعْضُهُمْ: إنَّهُ نَائِمٌ، وقالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ ٱلْعَيْنَ نَائِمَةٌ، وٱلْقَلْبُ يَقْظَانُ.

فَقالُوا: مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنى دَاراً، وجَعَلَ فيها مَأْدُبَةً، وبَعَثَ دَاعِياً، فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ، دَخَلَ الدَّارَ، وأَكَلَ مِنَ المَأْدُبَةِ، ومَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ، لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ، ولَمْ يَأْكُلْ مِنَ المَأْدُبَةِ.

فقَالُوا: أَوِّلُوهَا لَهُ يَفْقَهْهَا، قالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وقالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ ٱلْعَيْنَ نَائِمَةٌ، وٱلْقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: فَالدَّارُ: الجَنَّةُ، والدَّاعي: مُحمدٌ، فَمَنْ أَطَاعَ مُحمَّداً، فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، ومَنْ عَصَى مُحمَّداً، فَقَدْ عَصَى اللهَ، ومُحمدٌ فَرَّقَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ».

أخرجه البخاري (٧٢٨١).

قوله: «المأدبة»: هو صنيعٌ يصنعه الرجلُ يدعو الناسَ إليه. والداعي من الدعوة. والمَدْعاة: هي الوليمة.

وقوله: «فَرَّقَ» بتشديد الراء، أي: فرَّق بين المطيع والعاصي. فَمنْهَجُ النبوة في الاعتقادِ والعبادةِ والأَخلاقِ هو الفيصلُ بين الناسِ، فلا اعتبارَ لأَحدٍ إلاَّ بمقدارِ متابعته لرسولِ الله ﷺ.

٩٢ ـ عن أبي موسى عَن ٱلنَّبيِّ ﷺ قالَ: إِنَّما مَثَلي ومَثَلُ مَا بَعَثَني اللهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْماً، فَقَالَ: يَا قَوم إِنِّي رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْني، وإِني أَنَا النَّذِيرُ ٱلْعُريَانُ، فَالنَّجَاءَ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَدْلَجُوا، فَانْطَلَقُوا عَلى مَهْلِهِم، فَنَجَوْا، وكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ، فَأَهْلَكَهُمْ واجْتَاحَهُمْ، فَذلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَني، فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، ومَثَلُ مَنْ عَصَاني، وكَذَّبَ بِما جِئْتُ بِهِ مِنَ الحَقِّ».

أخرجه البخاري (٧٢٨٣) ومسلم (٢٢٨٣).

والنَذير: المخوِّف، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لِيكُونَ للعالَمِينَ نذِيراً﴾ [الفرقان: ١]، وقد يأتي بمعنى الإنذار، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فستَعْلمونَ كيفَ نَذيرِ﴾ [الملك: ١٧] أي: إنذاري.

قوله: «أنا النَّذيرُ العُريانُ» معناه: أن الرَّبيئَة الذي يَرقُب العدوَّ، فإذا لَقِيَ العدوَّ، نَزَع ثوبَه، فألاحَ به يُنذِرُ القومَ، فيبقى عُرياناً، أو نزعَ ثوبَه يَعْدُو، فيُخبِرُ القوم. وخصَّ العُريان، لأنه أبين في العين.

وقوله: فأدْلَجوا. الإدلاج بالتخفيف: سَيرُ أول الليل، وبالتشديد: سير آخر الليل.

وقوله ﷺ: «اجتاحَهم»، أي: استأصلهم، ومنه الجائحة التي تُفسِدُ الثمار وتُهلكها.

٩٣ ـ عن أنس قال: جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إلى أَزْوَاجِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبادَةِ ٱلنَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ، فَلَمَا أُخْبِرُوا بِهَا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: أَيْنَ نَحْنُ مِنَ ٱلنَّبِيِّ ﷺ، وقَدْ غَفَرَ الله لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ومَا تَأَخَّرَ؟!.

فقالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَأُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَداً، وقَالَ الآخر: أنا أَصُومُ النَّهَارَ لا أُفْطِرُ، وقالَ الآخرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ ٱلنِّسَاءَ فَلا أَتَزوَّجُ أَبَداً، فَجَاءَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ إليهم، فقالَ: «أَنْتُمُ الَّذينَ قُلْتُمْ كَذَا وكَذَا، أما واللهِ إني لأَخْشَاكُمْ للهِ، وأَتْقَاكُمْ لَهُ، لكنِّي أَصُومُ وأُفْطِرُ وأُصلِّي وأرْقُد، وأتزوَّجُ ٱلنِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتي فَلَيْسَ مِنِّي».

أخرجه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١).

قوله: «فمن رغب عن سنَّتي فليس مني»: المرادُ بالسنَّة هُنا: الطريقةُ، والرغبةُ عنها تكون بالإعراضِ عنها إلى غيرِها، والمعنى: أَنَّ مَنْ تَرَك طَريقتي وأَخَذَ بطريقةِ غيري، فليس مني، ولمَّح بذلك إلى طريقةِ الرهبانية، فإنَّهم الذين ابتدعوا التشديدَ، وطريقةُ النبيِّ هي الحنيفيَّةُ السَّمْحَةُ. وقوله: «فليس مني» أي: على طريقتي إنْ كان الإعراضُ بضربٍ من التأويل يُعْذَرُ صاحبُه، فإنْ كان إعراضاً

وتنطُّعاً يُفْضي إلى اعتقادِ أَرْجَحِيَّةِ عملِهِ فالمعنى: «ليس على ملَّتي» لأَنَّ اعتقادَ ذلك نوعٌ من الكفر. وفي الحديثِ: دلالةٌ على فضل النكاحِ والترغيب فيه.

وفيه: تَتَبُّعُ أَحوالِ الأَكابرِ للتأسي بأفعالهم، وجوازُ استكشاف ذلك من النساءِ إذا تعذَّرت معرفتُه من الرجال.

وفيه: أَنَّ العِلْمَ بالله ومعرفةَ ما يجبُ في حقِّه أَعْظَمُ قَدْراً من مجرَّدِ العبادةِ البدنية.

٩٤ ـ عن عبدالله بن مسعودٍ قالَ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطّاً، ثُمَّ قالَ: هذا سَبِيلُ اللهِ، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطاً عَنْ يَمِينِهِ وعَنْ شِمَالِهِ، وقالَ: هذِهِ سُبُلٌ، على كُلِّ سَبِيلٍ مِنْها شَيْطَانٌ يَدْعُو إليهِ، وقَرَأَ: ﴿وأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

إسناده حسنٌ، وأخرجه أحمد في «المسند» (٤١٤٢) وصحَّحه ابن حبان (٦، ٧) وفيهما تمامُ تخريجه.

٩٥ ـ عن أبي هريرة قال: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فإنَّما أَهْلَكَ الَّذِينَ مَنْ قَبْلَكُمْ سُؤالُهُمْ واخْتِلافُهُمْ عَلى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيءٍ، فَاجْتَنِبُوهُ، وإذا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ، فَائْتَمِرُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ».

أخرجه البخاري (٧٢٨٨) ومسلم (١٣٣٧).

قالَ: وقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَثَلي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَاراً، فَلَما أَضَاءَتْ مَا حَوْلَها جَعَلَ ٱلْفَرَاشُ وهذِهِ الدَّوابُّ ٱلتي يَقَعْنَ في ٱلنَّارِ، فَيَقَعْنَ فِيها، وجَعَلَ يَحْجُزُهُنَّ ويَغْلِبْنَهُ، فَيَتَقَحَّمْنَ فِيها، فَذلِكَ مَثَلِي ومَثَلُكُمْ، أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَن ٱلنَّارِ، هَلُمَّ عَن ٱلنَّارِ، هَلُمَّ عَن ٱلنَّارِ، فَتَغْلِبُوني تَقَحَّمُونَ فيها».

أخرجه البخاري (٦٤٨٣)، ومسلم (٢٢٨٤)، والترمذي (٢٨٧٤).

استوقَدَ: أوقد، والفراش: ما تراه كصغار البَقّ يتهافتُ في النار، ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿كالفَراشِ المبثوث﴾ [القارعة: ٤].

والحُجَز: جمع حُجْزَةٍ: السَّراويل، ويقال: فلانٌ آخِذٌ بحُزَّتِه، أي بعُنُقه، ويقال: بحُجْزَتِه.

قال القاضي أبو بكر بن العربي في «عارضة الأحوذي» ١٠ ـ ٣٢٥: تمثيلُ الأُمَّةِ بالفَراشِ وذلك لكثرةِ تلبُّس الخَلْقِ بالشهواتِ ووقوعِهم في حبائِلها صارت كالفَراشِ التي تَقَعُ في النارِ قاصدةً إليها من غَير تَثَبُّتٍ فيما تَصيرُ إليه ولا معرفةٍ بما تَقَعُ فيه.

٩٦ ـ عن أبي هريرة قال: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّما هَلَكَ الَّذِينَ مَنْ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ واخْتِلافِهِمْ عَلى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذا أَمَرْتُكُمْ بالأَمْرِ فَائْتُوا مِنهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ».

قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحِكَم» ١/ ٢٤٤: أشار ﷺ في هذا الحديثِ إلى أنَّ في الاشتغالِ بامتثالِ أَمْرِهِ، واجتناب نَهْيِهِ شُغلاً عن المسائِلِ، فالذي يتعَيَّنُ على المسلم الاعتناءُ به أَن يَبْحَثَ عَمَّا جاءَ عنِ الله ورسولهِ ﷺ، ثم يجتهدَ في فَهْم ذلك، والوقوفِ على معانيه، ثم يشتغلَ بالتصديقِ بذلك إن كان من الأُمورِ العلَميةِ، وإنْ كان من الأمورِ العمليةِ، بَذَلَ وُسْعَهُ في الاجتهادِ في فِعْلِ ما يستطيعه من الأوامرِ، واجتنابِ ما يُنهى عنه، وتكون همَّتُه مصروفةً بالكليةِ إلى ذلك، لا إلى غيره، وهكذا كان حال أَصحابِ النبيِّ ﷺ والتابعين لهم بإحسانٍ في طلبِ العلمِ النافعِ من الكتابِ والسنَّةِ. وانظر ١/ ٢٤٩ من الكتاب نفسِهِ فثَمَّةَ كلامٌ محرَّرٌ نَفيسٌ.

٩٧ ـ قالتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: صَنَعَ رَسُولُ اللهِ شَيئاً فَرخَّصَ فيهِ، فَتَنَزَّهَ عَنْهُ قَوْمٌ، فَبَلَغَ ذلِكَ ٱلنَّبيَّ ﷺ، فَخَطَبَ فَحَمِدَ الله، ثُمَّ قَالَ:

«مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ ٱلشَّيءِ أَصْنَعُهُ، فَواللهِ إِنّي لأَعْلَمُهُمْ باللهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً».

أخرجه البخاري (٧٣٠١) ومسلم (٢٣٥٦).

قال الإمام النووي: في الحديثِ: الحثُّ على الاقتداءِ به ﷺ، والنَّهْيُ عن التعمُّقِ في العبادةِ، وذمُّ التنزُّهِ عن المباحِ شكّاً في إباحته.

وفيه: الغَضَبُ عند انتهاكِ حرماتِ الشرعِ وإِنْ كان المُنْتَهِكُ متأوِّلاً تأويلاً باطلاً.

وفيه: حُسْنُ المُعاشرةِ بإرسالِ التعزيز والإنكارِ في الجَمْع ولا يُعَيِّنُ فاعِلَهُ.

وفيه: أَنَّ القُرْبَ إلى الله تعالى سببٌ لزيادةِ العِلْم بهِ وشِدَّة خَشْيَتِهِ.

٩٨ ـ عن أبي رافع، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: «لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئاً على أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الأَمْرُ مِنْ أَمْري مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ، أَونَهَيْتُ عَنْهُ، فَيَقُولُ: لا أَدْرِي، مَا وَجدْنَاهُ في كتابِ اللهِ اتَّبَعْناهُ».

هذا حديثٌ صحيحُ الإسناد، أَخرجه الشافعيُّ في «الرسالة» (٢٩٥)، وأحمد (٢٣٨٧٦)، وأبو داود (٤٦٠٥) وغيرهم.

والأريكة: السرير، ويقال: لا يسمى أريكة حتى يكون في حَجَلَة، وقال الأزهري: كل ما اتُّكىء عليه، فهو أريكة، وأراد بهذه الصفة أصحابَ الترفُّه والدَّعَة الذين لزموا البيوت، وقعدوا عن طلب العلم.

وفي الحديث دليل على أنه لا حاجة بالحديث إلى أن يُعرض على الكتاب، وأنه مهما ثبت عن رسول الله ﷺ كان حجة بنفسه، وقد قال النبي ﷺ: «ألا إِنّي أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثْلَه مَعَهُ».

أخرجه أبو داود (٤٦٠٤) وابن حبان (٩٧).

وأراد به أنه أوتي من الوحي غير المتلوّ، والسنن التي لم ينطقِ القرآنُ بنصها مثلَ ما أوتي من المتلو، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤] فالكتاب: هو القرآن، والحِكمة: هي السنة.

أو أوتي مثله من بيانه، فإن بيانَ الكتاب إلى الرسول ﷺ، قال الله تعالى: ﴿وأنْزَلْنَا إليك الذِّكْرَ لتُبَيِّنَ للنَّاسِ مَا نُزِّلَ إليهم﴾ [النحل: ٤٤].

قال عمر بن الخطاب: إنه سيأتي أناس يأخذونكم بشبُهات القرآن، فخذوهم بالسنن، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله.

قال الزهري: لا تناظر بكتاب الله، ولا بسنة رسول الله ﷺ، أي: لا تجعل شيئاً نظيراً لهما، فتدَعَهُما لقول قائل.

وقال أبو عبيد: يجوز أيضاً: لا تجعلهما مَثَلاً للشيء يَعْرِض، كقول القائل للرجل يجيء في وقت يحتاج إليه، جئتَ على قدر يا موسى.

٩٩ ـ عن أبي هريرة: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «إنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثاً، ويَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاثاً، يَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ، ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيئاً، وأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً، وأنْ تُناصِحُوا مَنْ وَلَّى اللهُ أَمْرَكُمْ، وَيَسْخَطُ لَكُمْ: قيلَ وَقَالَ، وإضَاعَةَ المالِ، وكَثْرَةَ ٱلسُّؤالِ».

أخرجه مالك ٢/٧٥٦ ومسلم (١٧١٥).

قوله: «قيل وقال» يريد: قيل وقول، جعل القال مصدراً، يقال: قلت قولاً وقيلاً وقالاً، وفي قراءة عبدالله بن مسعود (ذلك عيسَى ابنُ مَرْيمَ قَالُ الحَقِّ) [مريم: ٣٤].

وقيل في قوله: «قيل وقال» وجهان. أحدهما: حكاية أقاويل الناس وأحاديثهم، والبحث عنها، فيقول: قال فلان كذا، وقيل لفلان كذا، وهو من باب التجسس المنهي عنه.

وقيل: هو فيما يرجع إلى أمر الدِّين، وذكر ما وقع فيه من الاختلاف، يقول: قال فلان كذا، وقال فلان كذا من غير ثَبَتٍ ويقين لكي يُقلِّد ما سمعه، ولا يحتاط لموضع اختياره من تلك الأقاويل.

وقوله: «وإضاعة المال» قيل: هو الإنفاق في المعاصي، وهو السَّرَفُ الذي نهى الله عنه، ويدخل فيه الإسراف في النفقة في البناء، ومجاوزة حد الاقتصاد فيه في الملبس والفرش، وتمويه الأواني والسقوف بالذهب والفضة، ويدخل فيه سوء القيام على ما يملكه من الرقيق والدواب حتى يضيع فيهلكَ، وقسمة ما لا ينتفع به الشريك، كاللؤلؤة والسيف يكسره، والحمام الصغير، والطاحونة الصغيرة التي تتعطل منفعتها بالقسمة، واحتمال الغَبْنِ الفاحش في البياعات ونحوها.

وقيل: هو دفع مال من لم يُؤنسْ منه الرشد إليه، قال الحسن في قوله تعالى: ﴿فإن آنَسْتُمْ منهم رُشْداً فادْفَعُوا إليهم أموالَهم﴾ [النساء: ٦] قال: صلاح في دينه، وحفظ لماله.

وقوله: «وكثرة السؤال» فإنها مسألة الناس أموالهم بالشره، وترك الاقتصار فيه على قدر الحاجة، وقد يكون من السؤال عن الأمور، وكثرة البحث عنها، كما قال الله تعالى: ﴿لا تسألوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] وقال عز وجل: ﴿ولا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢].

وقد يكون من المتشابه الذي أمر بالإيمان بظاهره في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وأما الَّذِينَ في قلوبهم زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابتغَاء الفِتْنَةِ وابْتِغَاءَ تأويلِهِ وَما يَعْلَمُ تأوِيلَهُ إلا اللهُ والرَّاسِخُونَ في العِلْمِ يَقُولونَ آمنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وما يَذَّكَّرُ إلا أُولُوا الألبابِ﴾ [آل عمران: ٧].

١٠٠ ـ عن العِرْباضِ بن سارية قالَ: صَلَّى بنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الصُّبْحَ، فَوَعَظَنا مَوعِظَةً بَليغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْها ٱلْقُلُوبُ، فقالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ الله كأنَّها مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَأَوصِنَا، فقال: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ والسَّمْعِ والطَّاعَةِ، وإنْ كانَ عَبْداً حَبَشِيّاً، فإنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافاً كَثيراً، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِين المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيها بِالنَّوَاجِذِ، وإيَّاكُمْ ومُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ».

هذا حديثٌ صحيح بطرقه وشواهده، أخرجه أحمد (١٧١٤٢)، وأبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وقال: حسنٌ صحيحٌ، وصحَّحه ٱبن حبان (٥).

قوله: «وإن كان عبداً حبشياً» يُريد به طاعة من ولاَّه الإمام، وإن كان حبشياً، ولم يُرِد بذلك أن يكون الإمام عبداً حبشياً، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الأئِمَّةُ من قريش». أخرجه الطيالسي في «مسنده» ٢/ ١٦٣ بإسنادٍ صحيح.

أو ذكرَ ذلك على طريق ضرب المثل، فإن المثل قد يُضربُ في الشيء بما لا يكاد يصحُّ في الوجود، كما يُروي «مَن بنى مَسجِداً ولو كمَفْحَصِ قَطاةٍ بنى اللهُ له بيتاً في الجنَّة» أخرجه أحمد (٢١٥٧) بإسنادٍ صحيح لغيرِه.

وقوله: «فإنه مَنْ يَعِشْ منكم فسيَرى اختلافاً كثيراً» إشارةٌ إلى ظهور البِدَع والأهواء ـ والله أعلمُ ـ فأمرَ بلزوم سُنَّتِه، وسُنةِ الخلفاء الراشدين، والتمسكِ بها بأبلغ وجوه الجِدِّ، ومُجانبةِ ما أُحدِث على خِلافها.

وفيه دليل على أن الواحد من الخلفاء الراشدين إذا قال قولاً، وخالفه غيرُه من الصحابة كان المصير إلى قوله أولى، وإليه ذهب الشافعي في القديم.

قلنا: وقد بسط الشافعيُّ رأيَهُ في أقاويل الصحابة في كتابه «الرسالة» الفقرة (١٨٠٥) فقال: قال: قد سمعت قولك في الإجماع والقياس بعد قولك في حكم

كتاب الله وسنة رسوله، أرأيت أقاويل أصحاب رسول الله ﷺ إذا تفرقوا فيها؟ فقلت: نصير منها إلى ما وافق الكتاب أو السنة أو الإجماع، أو كان أصح في القياس. قال: أفرأيت إذا قال الواحد منهم القول لا يَحْفَظُ عن غيره منهم فيه له موافقة، ولا خلافاً، أتجد لك حجة باتباعه في كتاب أو سنة، أو أمر أجمع الناس عليه، فيكون من الأسباب التي قلت بها خبراً؟ قلت له: ما وجدنا في هذا كتاباً ولا سنة ثابتة، ولقد وجدنا أهل العلم يأخذون بقول واحدهم مرة، ويتركونه أخرى، ويتفرقون في بعض ما أخذوا به منهم. قال: فإلى أي شيء صرت من هذا؟ قلت: إلى اتباع قول واحد إذا لم أجد كتاباً، ولا سنة، ولا إجماعاً، ولا شيئاً في معناه يحكم له بحكمه، أو وجد معه قياس، وقلما يوجد من قول الواحد منهم لا يخالفه غيره من هذا.

وأراد بمُحدَثات الأمور: ما أحدِث على غير قياسِ أصلٍ من أصول الدين، فأما ما كان مردوداً إلى أصل من أصول الدين، فليس بضلالة.

قال الشيخ: والحديث يدُلُّ على تفضيل الخلفاء الراشدين على مَنْ سِواهم من الصحابة، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، فهؤلاء أفضل الناس بعد النبيِّين والمرسلين صلى الله عليهم، وترتيبهم في الفضل، كترتيبهم في الخلافة، فأفضلُهم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي.

وكما خصَّ النبي ﷺ هؤلاء من بين الصحابة باتِّباع سُنَّتهم، فقد خص من بينهم أبا بكر وعمر في حديث حُذيفَة عن النبي عليه السلام قال: «اقتَدُوا باللَّذَيْنِ من بعدي أبي بكرٍ وعمر». أخرجه الترمذي (٣٦٦٣) وحَسَّنه وهو كما قال.

وكان ابن عباس إذا سُئل عن الأمر وكان في القرآن، أخبَرَ به، فإن لم يكن وكان عن رسول الله ﷺ، أخبر به، فإن لم يكُنْ فعن أبي بكرٍ وعمر، فإن لم يكن قال فيه برأيه.

وقال أبيُّ بن كعب: إنَّ اقتصاداً في سَبيلٍ وسُنَّةٍ خيرٌ من اجتهادٍ في خلاف سبيلٍ وسُنَّةٍ، ومثله عن ابن مسعود.

وقال ابن عون: ثلاثٌ أحِبُّهنَّ لنفسي ولإخواني: هذه السّنة أن يتعلَّموها، ويَسألوا عنها، والقرآنَ أن يتفهَّمُوهُ، ويسألوا عنه، ويَدَعُوا الناس إلا مِنْ خير.

علّقه البخاري في «صحيحه» قبل الحديث (٧٣٧٥)، ووصله الحافظ ابن حجر في «التغليق» ٥/ ٣١٩.

وقال الأوزاعيُّ: خمسٌ كان عليه أصحاب النبي ﷺ: لزومُ الجماعة، واتِّباعُ السّنَّة، وعِمارةُ المسجد، وتلاوةُ القرآن، وجهادٌ في سبيل الله.

قوله: «فإنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضلالةٌ».

قال الإمام أبو شامة في «الباعث على إنكارِ البدع والحوادث» ص: ٢٤: غَلَبَ لَفْظُ البِدْعةِ على الحَدَثِ المكروه في الدينِ مهما أُطْلِقَ هذا اللفظُ، ومِثْلُه لَفْظُ المُبْتَدِع، لا يكادُ يُسْتَعمل إلاّ في الذَّمِّ. وهو ما لم يكن في عصر النبيِّ ﷺ ممَّا فَعَلَهُ أو أَقَرَّ عليه، أو عُلِمَ من قواعدِ شريعتِهِ الإذْنُ فيه وعَدَمُ النكيرِ عليه.

وقد أجاد الإمام النَّظَّارُ المُتَفنِّنُ أبو إسحاقَ الشاطبيُّ في رَدِّ مفهوم «البِدْعة» على مقتضى النصوصِ الشرعيةِ والنَّظَرِ العقليِّ في كتابه القَيِّم «الاعتصام» ١/ ٤٦ فما بعدها، وسلك في إبطالِها مَنْزَعاً نَبيلاً أتى على بُنيانِها من القواعِدِ.

بابُ

ردِّ البدع والأهواء

قال اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالى: ﴿ومَنْ أضَلُّ مِمَّن اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْر هُدىً مِنَ اللهِ﴾ [القصص: ٥٠].

وقالَ اللهُ تَعَالى: ﴿وَلا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [صّ: ٢٦].

وقالَ الله عَزَّ وجَلَّ: ومَا تَفَرَّقُوا إلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلم بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣]، أي: عَلى عِلْمٍ أَنَّ ٱلْفُرْقَةَ ضَلالَةٌ، ولكِنَّهُمْ فَعَلُوهُ بَغْياً، أي: لِلْبَغْي.

وقالَ اللهُ تَعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللهِ ويَبْغُونَها عِوَجاً﴾ [الأعراف: ٤٥]، قِيلَ: العِوَجُ فيما لا شَخْصَ لَهُ، يُقال: في الأَمْرِ والدِّينِ عِوَجٌ بِكَسْرِ ٱلْعَين، وفي الجِدَارِ وٱلشَّجَرِ: عَوَجٌ بِفَتْح ٱلْعَيْنِ.

وقالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: إنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وكانُوا شِيَعاً﴾ [الأنعام: ١٥٩]، هُمْ أهلُ ٱلْبِدَعِ والأَهْواءِ.

وقالَ اللهُ تَعالى: ﴿شَياطِينَ الإِنْسِ والجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُوراً﴾ [الأنعام: ١١٢]، أي: زِيْنَتَهُ وَحُسْنَهُ بِتَرْقِيشِ ٱلْكَذِبِ، ومِنْهُ قَولُهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالى: ﴿حَتَّى إذا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ [يونس: ٢٤]، أي: تَزَيَّنَتْ بأَلْوَانِ نَبَاتِها، والزُّخْرُف: كَمالُ حُسْنِ ٱلشَّيء.

١٠١ ـ عن عائشة رضي الله عنها، قالتْ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ في دِينِنَا مَا ليسَ مِنْهُ، فَهُوَ رَدٌّ».

أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨).

وقال عبدالله بن مسعود: «إن أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وأحسنَ الهدي هَدْيُ محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ مُحدَثاتُها».

أخرجه البخاري (٧٢٧٧) ورواه جابر مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ، وقال: «إن خَيْرَ الحديث كتَابُ اللهِ، وخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ محمدٌ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحدَثاتُها، وكلّ بدعةٍ ضلالة». أخرجه مسلم (٨٦٧).

وقوله: «أحسن الهَدي»، أي: أحسن الطريق.

قال الحافظ ٱبن رجب في «جامع العلوم والحكم» ١/ ١٧٦: هذا الحديثُ أَصلٌ عظيمٌ من أُصولِ الإسلام، وهو كالميزان للأَعمالِ في ظاهرِها، كما أنَّ حديثَ «إنَّما الأَعمالُ بالنيات» ميزانٌ للأَعمالِ في باطنِها، فكما أَنَّ كلَّ عملٍ لا يُرادُ به وَجْهُ الله تعالى فليس لعامله فيه ثوابٌ، فكذا كلُّ عملٍ لا يكونُ عليه أَمرُ الله ورسوله، فهو مردودٌ على عامِلِهِ.

١٠٢ ـ عن عبدالله بن عمرو بن العاص، عَن ٱلنبي ﷺ قالَ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَواهُ تَبَعاً لِما جِئْتُ بِهِ».

إسنادُهُ ضَعيفٌ، وقد بسط الحافظُ ٱبن رَجَبٍ الكلامَ على عِلَلِ هذا الحديثِ وفِقْهِهِ في «جامع العلوم والحِكَمِ» ٢/ ٣٩٣.

وثبت عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بني إسرائيل تفرَّقَتْ على اثنتينِ وسبعين مِلَّةً، وتفترِقُ أمتي على ثلاثٍ وسبعين مِلَّةٍ، كُلُّهُم في النَّار إلا مِلَّةً واحدةً» قالوا: مَن هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي».

أخرجه الترمذي (٢٦٤٣) ويتقوَّى بالحديثِ الصحيح الآتي.

ورواه معاوية، وقال: «ٱثنتانِ وسبعون في النار، وواحدةٌ في الجنة، وهي الجماعةُ، وإنه سيخرج في أمتي أقوامٌ تَجَارَى بهم تلك الأهواءُ كما يتجارَى الكَلَبُ بصاحبه، لا يبقى منه عِرْق ولا مَفْصِلٌ إلا دخله».

أخرجه أحمد (١٦٩٣٧) وأبو داود (٤٥٩٧) وإسناده حسن. وقال ابن عباس: أما تخافون أن تُعذَّبُوا أو يُخْسَفَ بكم أن تقولوا: قال رسول الله ﷺ، وقال فلان!!.

قال رجل لابن عباس: أوصني، قال: عليك بتقوى الله، والاستقامة، اتَّبِعْ ولا تَبْتَدِعْ.

وقال عبدالله بن مسعود: اتَّبِعُوا ولا تَبْتَدِعوا، فقد كُفِيتُم.

وقال حُذيفة: يا معشرَ القُرّاءِ استقيموا فقد سُبِقْتُم سَبقاً بعيداً، وإن أخذتم يميناً وشمالاً، لقد ضللتم ضلالاً بعيداً.

وقال ابن مسعود: من كان مُستنّاً فليَسْتَنَّ بمن قد مات، أولئك أصحابُ محمَّدٍ ﷺ كانوا خيرَ هذه الأمة، أبرَّها قلوباً، وأعمقَها عِلْماً، وأقلَّها تكلُّفاً، قومٌ اختارهم الله لصحبة نبيِّه ﷺ، ونقْلِ دينه، فتشبَّهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم كانوا على الهَدْي المستقيم.

١٠٣ ـ قالَ عَبْدُ اللهِ بن مسعود: إنَّ اللهَ تَعَالى اطَّلَعَ في قُلُوبِ ٱلْعِبَادِ، فَاخْتَارَ مُحمَّداً ﷺ، فَبَعَثَهُ بِرِسَالتِهِ، وانْتَجَبَهُ بِعِلْمِهِ، ثُمَّ نَظَرَ في قُلُوبِ ٱلنَّاسِ بَعْدُ، فَاخْتَارَ لَهُ أَصْحَاباً، فَجَعَلَهُمْ أَنْصَارَ دِينِهِ، وَوُزَرَاءَ نَبِيِّهِ ﷺ، فَما رآهُ المُؤْمِنُونَ حَسَناً، فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ، ومَا رآهُ المُؤْمِنُونَ قَبِيحَاً، فَهُوَ عِنْدَ اللهِ قَبِيحٌ.

إسناده حسنٌ، أخرجه أحمد (٣٦٠٠) وفيه تمامُ تخريجِهِ.

قوله: «وانتجبه» بالجيم: ٱختاره واصطفاه. وفي نُسخة «انتخبه» بالخاء، وهما بمعنى واحدٍ.

ورُوي عن عبدالله بن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله لا يَجْمَعُ أُمَّتي، أو قال: أُمَّةَ محمَّدٍ على ضَلالةٍ، ويَدُ الله على الجماعة، ومَن شَذَّ شَذَّ إلى النار».

أخرجه الترمذي (٢١٦٨) وفيه ضَعْفٌ، لكنَّ له شاهداً عند الحاكم ١/ ١١٦ بسندٍ صحيحٍ فيتقوَّى به.

وتفسير الجماعة عند أهل العلم: هم أهل الفقه والعلم.

وسُئل ٱبن المبارك عن الجماعة فقال: أبو بكر وعمر، فقيل له: قد مات أبو بكر وعمر، قال: ففُلانٌ وفلانٌ، قيل: قد مات فلانٌ وفلان؟ قال ٱبن المبارك: أبو حمزة السُّكَّري جماعة.

أبو حمزة السكري: محمد بن ميمون المروزي ثقةٌ، روى له الجماعة، وسمي السكري لحلاوة كلامه، له ترجمة في «سير النبلاء» ٧/ ٣٨٥.

ودخل ٱبن مسعود على حُذيفة، فقال: اعهَدْ إليَّ، فقال له: ألم يأتِكَ اليقينُ؟ قال: بلى وعزّةِ ربي، قال: فاعلم أن الضَّلالةَ حقَّ الضَّلالةِ أن تَعرِفَ ما كُنْتَ تُنكِر، وأن تُنكِر مَا كنت تَعْرِفُ، وإياكَ والتَّلوُّنَ، فإن دينَ الله واحدٌ.

وقال شُرَيْحٌ: إن السُّنَّة قد سَبقتْ قياسكم، فاتَّبِعْ ولا تبتدِعْ، فإنَّكَ لنْ تَضِلَّ ما أخذْتَ بالأثر.

وقال الشَّعْبي: إنما الرأي بمنزلةِ الميتَة إذا احتَجْتَ إليها أكلتَها.

وجاء رجلٌ إلى مالكٍ فسأله عن مسألةٍ، فقال له: قال رسول الله ﷺ كذا وكذا، فقال الرَّجل: أرأيت؟ قال مالك: ﴿فَلْيَحذَر الذين يُخالِفُونَ عَنْ أمْرِهِ أن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أو يُصِيبَهُم عَذَابٌ أليمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وقال سفيان الثوري: البدْعة أحبُّ إلى إبليس من المعصية، المعصية يُتابُ منها، والبدعة لا يُتاب منها.

قال الشيخ: واتفق علماء السَّلف من أهل السّنة على النهي عن الجدال والخصومات في الصِّفات، وعلى الزَّجرِ عن الخوض في عِلم الكلام وتعلُّمه.

سأل رجلٌ عمر بن عبدالعزيز عن شيء من الأهواء، فقال: الزَمْ دينَ الصَّبيِّ في الكُتَّابِ والأعرابي، والْهَ عما سوى ذلك.

وقال أيضاً: من جعل دِينَه غرَضاً للخصومات أكثرَ التَّنقُّل.

وقال الزُّهري: مِنَ اللهِ الرِّسالةُ، وعلى الرسولِ ﷺ البلاغُ، وعلينا التسليمُ.

وقال مالك بن أنسٍ: إيَّاكُمْ والبِدَعَ، قيل: يا أبا عبدالله وما البِدعُ؟ قال: أهلُ البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعِلمِه وقُدْرته، ولا يسكُتون عمّا سكت عنه الصحابةُ والتَّابعونَ لهم بإحسان.

وروى عبدالرحمن بن مَهْدي، عن مالك: لو كان الكلام عِلماً، لتكلّم فيه الصحابة والتابعون، كما تكلّموا في الأحكام والشرائع، ولكنه باطلٌ يدلُّ على باطلٍ.

وسُئل سفيان الثوريُّ عن الكلام فقال: دَعِ الباطل، أين أنتَ عن الحق، اتَّبِعِ السُّنّة، ودعِ البدعة. وقال: وجدت الأمر الاتِّباعَ، وقال: عليكم بما عليه الجمَّالون والنساء في البيوت، والصِّبيان في الكُتَّاب من الإقرار والعمل.

قال الرّبيع عن الشافعي: لأنْ يَلْقى اللهَ العبدُ بكلّ ذنب ماخلا الشِّركَ، خيرٌ له من أن يلقاه بشيءٍ من الأهْواءِ.

وقال يونُس بن عبد الأعلى عن الشافعي: لأنْ يُبْتلى المرْءُ بما نهى الله عنه خلا الشِّرْكَ بالله، خيرٌ له من أن يبتليَه بالكلام.

وقال أبو ثورٍ عن الشافعي: ما ارتَدى أحدٌ بالكلام فأفلَح.

وقال الحسن بن محمد بن الصّباح: سمعتُ الشافعي يقول: حُكمي في أصحاب الكلام أن يُضرَبوا بالجريد، ويُحمَلوا على الإبل، ويُطاف بهم في العشائر والقبائل، ويُقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأخذ في الكلام.

وقال الربيع عن الشافعي: لو أنَّ رجلاً أوصى بكتُبِه من العلم لآخر، وكان فيها كتب الكلام، لم يدخُل في الوصيّة، لأنه ليس من العلم. وقال: لو أوصى لأهل العلم، لم يدخل أهلُ الكلام.

وقال يحيى بن سعيد: سمعتُ أبا عُبيد يقول: جمعَ النبي ﷺ جميعَ أمرِ الآخرة في كلمة «مَن أحدَثَ في أمرِنا ما ليس منه فهو رَدّ» وجميعَ أمرِ الدُنيا في كلمةٍ «إنما الأعمالُ بالنِّيات» يدخلان في كلِّ باب.

باب

مجانبة أهل الأهواء

قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعالى: ﴿وَإذا رَأَيْتَ الَّذينَ يَخُوضونَ في آياتِنا فَأعْرِض عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وقال اللهُ تَعالى: ﴿ولا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا واتَّبَعَ هَواهُ﴾[الكهف: ٢٨]

وقالَ الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿فَما اخْتَلَفُوا إلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ [الجاثية: ١٧].

وقالَ الله عَزَّ وجَلَّ ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً﴾ [المؤمنون: ٥٣]، أَي: صَارُوا أَحْزاباً وفِرَقاً عَلى غَيْرِ دِين ولا مَذْهَبٍ، وقيلَ: اخْتَلَفُوا في الاعتِقَادِ والمَذاهِب.

وقالَ سعيدُ بن جُبَيْرٍ في قَولهِ: ﴿أُولي الأَيْدي والأَبصَارِ﴾ [صَ: ٤٥]، قالَ: الأَيدي: ٱلْقُوَّةُ في ٱلْعَمَلِ، والأَبصَارُ: بُصَرَاءُ بِما هُمْ فيهِ مِنْ دِينِهم.

قالَ مُجاهِدٌ في قَولهِ تَعالى: ﴿مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ﴾ [آل عمران: ٧] قالَ: الحلالُ والحَرَام.

﴿وأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ﴾ يُصَدِّقُ بَعْضُها بَعضاً، كَقَولِهِ سُبْحَانَهُ وتَعالى: ﴿ومَا يُضِلُّ بِهِ إلا ٱلْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، وكَقولِهِ تَعالى: ﴿ويَجْعَلُ

الرِّجْسَ عَلى الَّذينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠]، وكَقَولِهِ تَعَالى: ﴿والَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً﴾ [محمد: ١٧].

١٠٤ ـ عن عائشة رضي الله عنها قَالتْ: تَلا رَسُولُ الله ﷺ هذِه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلكِتابِ وأُخَرُ مُتَشَابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَه مِنْهُ ابتِغَاءَ ٱلْفِتْنَةِ وابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ومَا يَعْلَمُ تأْوِيلَهُ إلا الله، والرَّاسِخُونَ في ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ومَا يَذَّكَّرُ إلا أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]، قَالتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَإذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى الله، فَاحْذَروهُمْ».

أخرجه البخاري (٤٥٤٧) ومسلم (٢٦٦٥).

قوله: ﴿آياتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ أي: غير منسوخاتٍ، وقوله: ﴿آياتُ الكِتابِ الحكيمِ﴾ [يونس: ١] أي: المُحكَم، وقوله: ﴿أُحكِمَتْ آياتُهُ ثمّ فُصِّلتْ﴾ [هود: ١] أي: أحكِمَتْ بالأمر والنهي، والحلال والحرام، ثم فُصِّلت بالوعد والوعيد.

وقيل: المُحكَم: هو الذي يُعرَف بظاهره معناه.

وأما المتشابه، ففيه أقاويل، أحدها ما قال الخطابيُّ وجماعةٌ: ما اشتبه منه، فلم يُتَلقَّ معناه من لفظِه، وذلك عن ضربين. أحدهما: إذا رُدّ إلى المحكم عُرف معناه، والآخر: ما لا سبيل إلى معرفة كُنهه، والوقوف على حقيقته، ولا يعلمه إلا الله، وهو الذي يَتَّبِعُه أهل الزيغ يبتغون تأويله، كالإيمان بالقدر والمشيئة، وعلم الصفات ونحوها ممّا لم نُتَعبَّدْ به، ولم يُكشَف لنا عن سره، فالمتَّبع لها مُبتَغٍ للفِتنة، لأنه لا ينتهي منه إلى حدٍّ تسكن إليه نفسه، والفتنة: الغلوُّ في التأويلِ المظلم.

وقد يُقالُ: المحكم: ما عرف منه المراد، إما بالظهور، وإما بالتأويل، والمتشابه: ما استأثر الله بعلمه، كقيام الساعة، وخروج الدجال، والحروف المقطعة في أوائل السور، وهو مذهب المتقدمين، وذكر الأستاذ أبو منصور البغدادي أنه الصحيح، وقال ابن السمعاني: إنه أحسن الأقوال، والمختار على طريقة أهل السنة.

ومَذْهَبُ المتأخرين من العلماء أن المحكم من القرآن: ما وضح معناه، والمتشابه نقيضه، وسمي المحكم بذلك لوضوح مفردات كلامه، وإتقان تركيبه بخلاف المتشابه. وانظر بسط الكلام على المحكم والمتشابه في رسالة «الإكليل» لشيخ الإسلام ابن تيمية.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ الكتاب﴾ أي: مُعظمه، يقال لمُعظم الطريق: أم الطريق، وقوله عز وجل: ﴿حتى يَبْعَث في أمِّها رسولاً﴾ [القصص: ٥٩] أي: في مُعظمِها.

١٠٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه عَنِ ٱلنَّبي ﷺ قالَ: «سَيَكُونُ في آخِرِ أُمَّتي نَاسٌ يُحَدِّثُونكُمْ بِما لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ ولا آبَاؤكُمْ، فَإيَّاكُمْ وإيَّاهُمْ».

أخرجه مسلم (٦) في المقدمة.

وروي عن عبدالله بن عمرو بن العاص، أنه قال: إن في البحر شَياطِينَ مَسْجُونةً أوثَقَها سليمانُ يُوشِكُ أن تَخْرُجَ فَتَقْرَأ على النَّاسِ قرآناً.

رواه مسلم في مقدمة «صحيحه» ١/ ١٢ موقوفاً على عبدالله بن عمرو بن العاص، وليس لهذا الحديث حكم الرفع، لأنهم اشترطوا في ذلك أن يكون مما ليس للرأي فيه مجال، وأن لا يعرف راويه برواية الإسرائيليات، والشرط الثاني غير متوفر في عبدالله بن عمرو، فإنه رضي الله عنه مشهور بروايته عنهم.

قال الشيخ: قد أخبر النبي ﷺ عن افتراق هذه الأمة، وظهور الأهواء والبدع فيهم، وحكم بالنجاة لمن اتبع سنَّته، وسنَّةَ أصحابه رضي الله عنهم، فعلى المرء المسلم إذا رأى رجلاً يتعاطى شيئاً من الأهواء والبدع معتقِداً، أو يتهاون بشيء من السنن أن يهجره، ويتبرأ منه، ويتركه حياً وميتاً، فلا يسلِّم عليه إذا لقيه ولا يجيبه إذا ابتدأ إلى أن يتركَ بدعته، ويُرَاجِعَ الحق.

والنهي عن الهِجران فوق الثلاث فيما يقع بين الرجلين من التقصير في حقوق الصحبة والعشرة دون ما كان ذلك في حق الدِّين، فإن هجرة أهل الأهواء والبدع دائمة إلى أن يتوبوا.

١٠٦ ـ عن عبدالرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك، أَنَّ عبدالله بن كعب بن مالك قال: سَمِعْتُ كَعْبَ بنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ تَبُوكَ، قال: وَنَهى رَسُولُ اللهِ ﷺ المُسْلِمينَ عَنْ كَلامِنا أَيُّهَا ٱلثَّلاثَةُ، فَاجْتَنَبَنَا ٱلنَّاسُ، وتَغَيَّرُوا لَنا، حَتَّى تَنَكَّرَتْ في نَفْسِيَ الأَرْضُ، فَما هِيَ ٱلَّتي أَعْرِفُ، فَأَمَّا صَاحِبَايَ، فَاسْتَكَانَا، وقَعَدا في بُيُوتِهِما يَبْكِيانِ، وأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَخْرُجُ، فَأَشْهَدُ ٱلصَّلاةَ مَعَ المُسْلِمِينَ، وأَطُوفُ في الأَسْوَاقِ، ولا يُكَلِّمُني أَحَدٌ، وآتِي رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وهُوَ في مَجْلِسِهِ بَعْدَ ٱلصَّلاةِ، فَأَقُولُ في نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ ٱلسَّلامِ عَليَّ أَمْ لا؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيباً مِنْهُ، فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإذا أَقْبَلْتُ عَلى صَلاتي، أَقْبَلَ عَليَّ، وإذا ٱلْتَفَتُّ نَحْوَهُ، أَعْرَض عَنِّي، حَتَّى إذا طَالَ عَليَّ ذلِكَ، تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبي قَتَادَةَ وهُوَ ابنُ عَمِّي، وأَحَبُّ ٱلنَّاسِ إِليَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَواللهِ مَا رَدَّ عَليَّ ٱلسَّلامَ...

حَتَّى إذا كَمُلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِين نَهى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ كَلامِنَا؛ آذَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِتَوبةِ اللهِ عَلَيْنَا، وانْطَلَقْتُ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَيَتَلَقَّاني ٱلنَّاسُ فَوْجاً فَوْجاً، يُهَنِّؤُونَنِي بالتَّوبةِ، فَلَما سَلَّمْتُ

عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ ٱلْسُّرُورِ:

«أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَومٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ».

أخرجه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩).

وفيه دليل على أن هِجران أهل البِدَع على التأبيد، وكان رسول الله ﷺ خاف على كعب وأصحابه النفاقَ حين تخلَّفوا عن الخروج معه، فأمر بهجرانهم إلى أن أنزل الله توبتهم، وعرف رسول الله ﷺ براءتهم، وقد مضت الصحابة والتابعون وأتباعهم، وعلماءُ السنة على هذا مُجمعينَ متفقين على معاداة أهل البدعة، ومهاجرتهم.

قال ٱبن عمر في أهل القَدَر: أخبرهم أني بريء منهم، وأنهم مني برآء، وقال أبو قِلابة: لا تجالسوا أصحاب الأهواء، أو قال: أصحاب الخصومات، فإني لا آمن أن يَغْمِسُوكم في ضلالتهم، ويُلَبِّسُوا عليكم بعضَ ما تَعرِفون.

وقال رجل من أهل البدع لأيوب السَّخْتِيانيْ: يا أبا بكر أسألك عن كلمة، فوَلَّى وهو يقول بيده: ولا نصف كلمة.

وقال سفيان الثوري: من سمع بدعةً، فلا يَحْكِهَا لجلسائه، لا يلقيها في قلوبهم.

قال الشيخ: ثم هم مع هِجرانهم كفُّوا عن إطلاق اسم الكفر على أحد من أهل القبلة، لأن النبي ﷺ جعلهم كلَّهم من أمته.

وروي عن جماعة من السلف تكفيرُ من قال بخلق القرآن، روي ذلك عن مالك، وابن عيينة، وابن المبارك، والليث بن سعد، ووكيع بن الجراح، وغيرهم.

وناظر الشافعي حفصَ الفرد، وكان الشافعي رضي الله عنه يسميه حفصَ المنفرد، فقال حفص: القرآن مخلوق، فقال الشافعي: كفرتَ بالله العظيم.

وقال محمد بن إسماعيل الجُعْفِي البخاري: نظرت في كلام اليهود والنصارى والمجوس، فما رأيت قوماً أضلَّ في كفرهم من الجهمية، وإني لأَستجهِلُ من لا يُكفِّرُهم إلا من لا يعرِف كفرَهم، وقال: ما أبالي صليتُ خلفَ الجَهْمِي والرافضي، أم صليت خلف اليهود والنصارى.

قلنا: ذكر ذلك في «خلق أفعال العباد» ص٧١، وهو من الغلو والإفراط الذي لا يوافقه عليه جمهور العلماء سلفاً وخلفاً، وكيف يذهب هذا المذهب مع أنه قد خرج في «صحيحه» أحاديث كثيرة رويت عن الجهمية والخوارج، وغيرهما من الفرق، فإذا كان يحكم بكفرهم، فكيف يروي عنهم؟! وانظر كتاب: «تاريخ الجهمية والمعتزلة» للعلامة جمال الدين القاسمي، ففيه تحقيق جيد في هذا الموضوع.

وأجاز الشافعي شهادَة أهل البدع، والصلاةَ خلفهم مع الكراهية على الإطلاق، فهذا القول منه دليل على أنه إن أطلق على بعضهم اسم الكفر في موضع أراد به كفراً دون كفر، كما قال الله تعالى: ﴿ومَن لم يَحْكُمْ بما أنزَلَ اللهُ فأولئك هم الكافِرونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

ومنهم من حمل قول من قال بالتكفير من السلف على مبتدع يأتي في بدعته ما يخرج به عن الإسلام، وكان أبو سليمان الخطابي لا يُكَفِّر أهل الأهواء الذين تأوَّلوا فأخطؤوا، ويُجيز شهادتهم ما لم يبلغ من الخوارج والروافض في مذهبه أن يُكفِّر الصحابة، أو من القدرية أن يُكفِّر من خالفه من المسلمين، فلا يرى الصلاة خلفهم، ولا يرى أحكام قُضاتهم جائزة، ورأى السيف واستباحة الدم، فمن بلغ منهم هذا المبلغ، فلا شهادة له.

وحكى عبدُالله بن أحمد بن حنبل، عن أبيه، فيمن قال بخلق القرآن: أنه لا يُصلى خلفه الجمعة، ولا غيرها، إلا أنه لا يدع إتيانَها، فإن صلى أعاد الصلاة.

وقال مالك: من يُبْغِضُ أحداً من أصحاب النبي ﷺ وكان في قلبه عليهم غِلٌّ، فليس له حق في فَيْءِ المسلمين، ثم قرأ قولَ الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا أفاءَ اللهُ على رسولهِ من أهلِ القُرى﴾ إلى قوله: ﴿والذين جاؤوا مِنْ بَعدِهم...﴾ الآية [الحشر: ٧، ٨].

وذُكِر بين يديه رجلٌ يَنْتَقِصُ أصحابَ رسولِ الله ﷺ، فقرأ مالك هذه الآية ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله والَّذِين معَه أشدَّاءُ على الكفَّارِ﴾ إلى قوله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الكَفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩] ثم قال: من أصبح من الناس في قلبه غِلٌّ على أحد من أصحاب النبي عليه السلام، فقد أصابته الآية.

وقال سفيان الثوري: من قدَّم علياً على أبي بكر وعمر، فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار، وأخشى أن لا ينفعه مع ذلك عمل.

وقال مالك: بئس القوم أهل الأهواء لا نسلِّم عليهم.

قال الشيخ الإمام: وهذا الهِجران، والتَّبرّي، والمعاداةُ، في أهل البدع والمخالفين في الأصول، أما الاختلاف في الفروع بين العلماء، فاختلافُ رحمة أراد الله أن لايكون على المؤمنين حرجٌ في الدِّين، فذلك لا يوجب الهِجران والقطيعة، لأن هذا الاختلافَ كان بين أصحاب رسول الله ﷺ مع كونهم إخواناً مؤتلفين، رُحماءَ بينهم، وتمسكَ بقول كل فريق منهم طائفةٌ من أهل العلم بعدهم، وكلٌّ في طلب الحقِّ، وسلوك سَبيلِ الرّشد مشتركون.

قال عونُ بن عبدالله: ما أُحبُّ أن أصحاب النبي ﷺ لم يختلفوا؛ فإنهم لو اجتمعوا على شيء، فتركه رجلٌ ترك السُّنَّة، ولو اختلفوا وأخذ رجل بقول واحدٍ أخذ بالسُّنَّة.

باب

ثواب من دعا إلى هدى أو أحيا سنة
وإثم من ابتدع بدعةً أو دعا إليها

قالَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى: ﴿ادْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقالَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى: ﴿وادْعُ إلى رَبِّكَ إنَّكَ لَعَلَى هُدى مُسْتَقِيمٍ﴾ [القصص: ٨٧].

وقالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ: ﴿قُلْ هٰذِه سَبِيلِي أَدعُو إلى اللهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا ومَنِ اتَّبَعَني﴾ [يوسف: ١٠٨].

وقالَ اللهُ تَعالى: ﴿واجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ [الفرقان: ٧٤]. قالَ: أئمَّةً نَقْتَدي بِمَنْ قَبْلَنَا، ويَقْتَدي بِنَا مَنْ بَعْدَنا.

وقالَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى: ﴿يَومَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]، أَي: بِنَبِيِّهِمْ، وقِيْلَ: بِكِتَابِهِمْ، وَقِيلَ: بإمَامِهِم الَّذِي اقْتَدَوْا بِهِ.

وقالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿ومِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

وقالَ اللهُ تَعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥].

قالَ: عَبْدُ اللهِ بن مَسْعُودٍ: مَا قَدَّمَتْ مِنْ خَيْرٍ، ومَا أَخَّرَتْ مِنْ سُنَّةٍ اسْتُنَّ بِها بَعْدَهُ، فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَن اتَّبَعَهُ، أَوْ سَيئَةٍ فَعَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِها.

وكَذلِكَ قَولُهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالى: ﴿يُنَبَّؤُ الإنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

١٠٧ ـ عن أبي هريرة: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «مَنْ دَعَا إلى هُدىً كانَ لَهُ منَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً، ومَنْ دَعَا إلى ضَلالَةٍ كانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثامِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذلِكَ مِنْ آثامِهِمْ شَيْئاً».

أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

وفي الحديثِ من الفِقْهِ: أَنَّ على المسلم أَن يَرْفَعَ رأسَه لعلومِ الكتابِ والسنَّةِ ويَصْبِرَ على كُلِّ عارضٍ دون طلبهما، وأَن يَعْمَلَ بعِلْمِهِ ثم يُجاهد نَفْسَه في سبيل نَشْرِه وتمكينِه وإخراجِ الناسِ من ظلمات الجَهْلِ، وأَن يَصْبِرَ على ما يناله من الأذى في سبيلِ ذلك، فإنه طريقُ الأَنبياءِ، وسبيلُ رضوان الربِّ تبارك وتعالى.

وفيه: وعيدٌ شديدٌ، لكلِّ دعاةِ الضلالةِ من أَربابِ الفِكْرِ والتشريع الذين لا يرجعون في سَعْيِهم إلى دينِ الله تعالى، بل يتَّبعون أَهواءَهم ويركبون رؤوسَهَم غير عابئين بأمرِ الله تعالى ونَهْيِهِ، ولا تكاد تُجدي فيهم موعظةٌ، بسببِ ما يَرَوْنَ من أَتْباعِ الناسِ لهم، فهؤلاءِ وأَشياعُهم لهم وعيدٌ شديدٌ وعذابٌ أليمٌ سَيَعضُّون أَصابع الندم عند معاينتِهِ إذا لم يتوبوا. وانظر كلاماً نفيساً للشيخ عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله في تعليقه على «رسالة المسترشدين»: ١٧١.

١٠٨ ـ عن بلال بن الحارث أنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقول: «مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتي قَدْ أُمِيتَتْ بَعْدِي، فَإِنَّ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلَ مَنْ عَمِلَ بِها مِنَ ٱلنَّاسِ لا يَنْقُصُ ذلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ، ومَنِ ابْتَدَعَ بِدْعَةً لا تُرْضِي اللهَ ورَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ مِثْلَ إِثْمِ مَنْ عَمِلَ بِها مِنَ ٱلنَّاسِ لا يَنْقُصُ ذلِكَ مِنْ آثَامِ ٱلنَّاسِ شَيْئاً».

أخرجه الترمذي (٢٦٧٩) وقال: هذا حديثٌ حسنٌ. وفي تحسينه نَظَرٌ، فإنَّ في إسناده راوياً ضعيفاً هو كثير بن عبدالله المُزَنيُ.

١٠٩ ـ عن ٱبن مسعود قال: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْماً إلا كانَ على ٱبن آدَمَ ٱلْقَاتِلِ كِفْلٌ مِنْ إثْمِهَا، لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ ٱلْقَتْلَ».

أخرجه البخاري (٣٣٣٥) ومسلم (١٦٧٧).

قوله: «كِفلٌ»، أي: نصيب. وقال رجلٌ لعبدالله بن مسعود: عَلِّمْني كلماتٍ جوامِعَ نوافِعَ، فقال: لا تُشرِكْ به شيئاً، وزُلْ مع القرآن حيث زال، ومَن جاءك بالحق، فاقبل منه وإن كان بعيداً بغيضاً، ومن جاءك بالباطل، فارددْه عليه وإنْ كان قريباً حبيباً.